سورة الزلزلة

مكية وهي تسع آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هي مكية في قول ابن عباس ومجاهد وعطاء، ومدَنيّة في قول قتادة ومقاتل. (روح المعاني)

بما أن القول الأول يؤيده أحد الصحابة، فنرجّحه ونعتبرها مكية، غير أن المصاحف المتداولة في بلادنا مكتوب عليها أنها مدنية.

أما القسيس "ويري" فيعتبرها مكية قائلا: رغم أنها تبدو مدَنية من أسلوب أوائل آياتها، لكنها مكية في الواقع. (تفسير القرآن لِـــ "ويري")

ومما يحيّرني دائما جرأةُ هؤلاء المستشرقين على تحديد السور مكيةً أو مدنيةً بناءً على أسلوبها، مع أنهم لا يعرفون العربية حتى بقدر ما يعرفها المشايخ العاديون. الحق أنهم لا يفهمون اللغة العربية جيدًا، دَعْك أن يقدروا على معرفة أساليب الكلام العربي؟ إنما مثل آرائهم عن القرآن التي يؤسسونها على أسلوب آياته في زعمهم كمثل رأيٍ يبديه الطفل عن الفلاسفة اليونان أو الفلاسفة الألمان. الواقع أنهم يجهلون علم الروايات وتاريخ الإسلام، فلا يستطيعون إلقاء أي ضوء على الأمر من حيث شواهد التاريخ وعلم الروايات، ومع ذلك يريدون أن يؤكدوا للناس طول باعهم في العلم، فيصدقون بعض الأمور الإسلامية محتجين أن أسلوبها يدل على ذلك، وهكذا يتماشون مع الروايات العلمية كما يدّعون طولَ باعهم العلمي تحت شعار الأسلوب. مع أن الواقع أنهم لا يقدرون على بيان أسلوب الكتب العربية العادية، دعك من أسلوب القرآن الكريم.

الترتيب والترابط:

لقد بين الله تعالى في السورة السابقة ما كان سيظهر من تأثير القرآن في الزمن الأول من الإسلام، أما هذه السورة فتتحدث عن تأثير القرآن الذي سيظهر في الزمن الأخير، حيث بين الله تعالى أن هذا القرآن أو هذا الرسول سيقوم بإصلاح الناس ثانية حين يقع في العالم زلزال عظيم في كل المجالات وتتغير ماهية العلوم.

لم يفهم القسيس "ويري" الربط بين هذه السورة والتي قبلها، فراح يقول: يبدو أن هذه السورة ليست مكتملة في مضمونها ويبدو أنها قطعة من سورة أخرى. (المرجع السابق)

والحق أن الجاهل قد يقول قولاً حقًّا، وهذا هو حال قول "ويري" هذا، إذ اعترف من حيث لا يدري بأن هذه السورة تتمة لموضوع السورة السابقة. ومع أنه جاهل بعلوم القرآن الكريم، ورغم أنه فطن أن هذه السورة ليست مكتملة في معناها، إلا أنه لم يستطع أن يعرف أي سورة تكمل هذا الموضوع مع هذه السورة. ويماثل حال "ويري" حالَ ابن صياد اليهودي الذي كان يدعي معرفة ما في الصدور، فقال له النبي ﷺ مرة وقد خبّأ في قلبه موضوع سورة الدخان: أخبرْني بما في قلبي؟ فقال ابن صياد: هو الدُّخ (أبو داود: كتاب الملاحم). فالقسيس ويري أيضًا لم يستطع إدراك الأمر الأساسي بأن هذه السورة تتمة لموضوع سورة البيّنة، غير أنه أدرك بفكره العميق – والقاصر عن إدراك أسرار القرآن الكريم – أن هذه السورة تبدو جزءا من سورة أخرى.

وهناك رواية عن هذه السورة في مسند أحمد وأبي داود والنسائي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَقْرِئْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ اقْرَأْ ثَلاثًا مِنْ ذَوَاتِ ﴿الر﴾. فَقَالَ: كَبُرَتْ سِنِّي وَاشْتَدَّ قَلْبِي وَغَلُظَ لِسَانِي. قَالَ: فَاقْرَأْ ثَلاثًا مِنْ ذَوَاتِ ﴿حم﴾. فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ. فَقَالَ: اقْرَأْ ثَلاثًا مِنَ الْمُسَبِّحَاتِ. فَقَالَ: مِثْلَ مَقَالَتِهِ. فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْرِئْنِي سُورَةً جَامِعَةً. فَأَقْرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا. فَقَالَ الرَّجُلُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لا أَزِيدُ عَلَيْهَا

أَبَدًا. ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ، مَرَّتَيْنِ. (أبو داود: كتاب قراءة القرآن).

يرى شُرّاح الحديث والمفسرون أن هذه الرواية دليل على فضل هذه السورة. لكن الحقيقة –كما هو واضح من كلمات الحديث– أن ذلك الشخص لم يقصد إلا أن يخبره الرسول ﷺ بسورة قصيرة يتخذها وِرْدًا، لأنه اعتبر السور ذوات "الر" والمسبِّحات سورًا طوالا بالنسبة إليه، مما يعني أنه كان قد سمع القرآن من الآخرين، وإلا كيف علم أن هذه السور طوال لا يطيق حفظها؟ وعندي أننا لو ذكرنا لفظ المسبِّحات أمام أناس عاديين يقرأون القرآن يوميًا لقال عديد منهم: ماذا تعنون من المسبّحات؟ ولكنا نجد هذا الرجل يقول: يا رسول الله، هذه السور تفوق قدرتي، مما يدل على أنه لم يكن يسمع القرآن الكريم من الآخرين فحسب، بل كان يعلم طوال السور من قصارها .

ثم إن قول النبي ﷺ له: اقرأْ ثلاثا من السور الفلانية يدل بوضوح على أنه ﷺ يدرك أن الرجل لا يريد أن يتعلمها منه ﷺ، إنما كان يريد أن يخبره النبي ﷺ بالسور التي يقرأها بنفسه، وهذا كما يفعل البعض عندنا حيث يأتون ويقولون: أخبِرْني بدعاء أو وردٍ أردده دائمًا. فأخبرَه الرسول ﷺ أولاً بالسور التي تبتدئ بـــ (الر). فلو كانت هذه الرواية تدلّ على فضل سورة الزلزلة، لما قال الرسول ﷺ للرجل: اقرأْ ثلاثًا من ذوات (الر)، بل لأمره منذ البداية بقراءة سورة الزلزلة، بل إننا نرى أنه لما اعتذر للرسول ﷺ بأنه كبير السن وضعيف الذاكرة وثقيل اللسان فلم يأمره الرسول ﷺ مباشرة بقراءة سورة الزلزلة بل أمره بقراءة غيرها. إذا كان هذا الحديث يدل على فضل سورة الزلزلة، أفليس عجيبًا أن يأمره الرسول ﷺ أولاً بسورٍ هي أقلّ فضلاً، بدلاً من السور التي هي أكثر فضلاً. فاستدلالهم من هذا الحديث على فضل سورة الزلزلة خاطئ، غير أن هذا الحديث يؤكد بلا ريب كونَها من السور الجامعة.

وعن أنس بن مالك قال قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ قَرَأَ ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ عُدِلَتْ لَهُ بنصْفِ الْقُرْآنِ، وَمَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ عُدِلَتْ لَهُ بِرُبُعِ الْقُرْآنِ، وَمَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عُدِلَتْ لَهُ بِثُلُثِ الْقُرْآن. (الترمذي، أبواب فضائل القرآن)

وهناك رواية بنفس المعنى عن ابن عباس في الترمذي.

وفي رواية أخرى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ: هَلْ تَزَوَّجْتَ يَا فُلانُ؟ قَالَ: لا وَاللَّهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلا عِنْدِي مَا أَتَزَوَّجُ بِهِ. قَالَ: أَلَيْسَ مَعَكَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: ثُلُثُ الْقُرْآنِ. قَالَ: أَلَيْسَ مَعَكَ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: رُبُعُ الْقُرْآنِ. قَالَ: أَلَيْسَ مَعَكَ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾؟ قَالَ بَلَى. قَالَ: رُبُعُ الْقُرْآنِ. قَالَ أَلَيْسَ مَعَكَ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ﴾؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: رُبُعُ الْقُرْآنِ. قَالَ تَزَوَّجْ تَزَوَّجْ (الترمذي، أبواب فضائل القرآن).. يعني عندك مال كثير فلماذا تقول ليس عندي ما أتزوج به؟

وفي رواية عن أبي هريرة قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: مَن قرأ في ليلة ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ كان له عدلُ نصفِ القرآن. أخرجه ابن مردويه. (فتح البيان)

وقد جاء في آخر الرواية التي نقلتُها من قبل من مسند أحمد أن الرجل لما أدبر قال النبي ﷺ: "عَلَيَّ بِهِ، فَجَاءَهُ، فَقَالَ لَهُ: أُمِرْتُ بِيَوْمِ الأَضْحَى، جَعَلَهُ اللَّهُ عِيدًا لِهَذِهِ الأُمَّةِ. فَقَالَ الرَّجُلُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ أَجِدْ إِلا مَنِيحَةً أُنْثَى أَفَأُضَحِّي بِهَا؟ قَالَ: لا وَلَكِنْ تَأْخُذُ مِنْ شَعْرِكَ، وَتُقَلِّمُ أَظْفَارَكَ، وَتَقُصُّ شَارِبَكَ، وَتَحْلِقُ عَانَتَكَ، فَذَلِكَ تَمَامُ أُضْحِيَّتِكَ عِنْدَ اللَّهِ. (مسند أحمد: أول مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما)

هذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائي أيضًا. (أبو داود: كتاب الضحايا، والنسائي، كتاب الضحايا)

وقوله ﷺ: إِنْ لَمْ أَجِدْ إِلا مَنِيحَةً أُنْثَى أَفَأُضَحِّي بِهَا؟ يعني: إن لم أجد إلا ناقةً قد أهداني إياها أحد أفأنحرها؟ فقال ﷺ: لا، إلى آخر الحديث.

في هذه الروايات عدة أمور تحتاج التدبر، أوّلُها: هنا ينشأ سؤال لا بد من الرد عليه: كيف يمكن أن تعادل سورة قصيرة من القرآن نصفَه أو ثلثه أو ربعه؟

والجواب: أن دين الإسلام للناس جميعًا، للعالم والجاهل والشيخ والشاب، ولم يبرح الرسول ﷺ والقرآن الكريم يركّزان على أنه قد نزل لكي يقرأه الناس ويحفظوه ويعملوا به. وقد تكرر هذا التأكيد لدرجة أن المسلم الصادق لا يملك إلا أن يتأثر به بشدّة. والحق أن من يرغب في الإسلام بصدق ولو قليلا، فلا بد له من الاعتراف أنّ حياته الإيمانية تتوقف على القرآن الكريم وحده، وأنه لن يقترب من الله تعالى إلا بقدر اقترابه من القرآن. فيمكن أن تقدّر في هذه الحالة معاناةَ شيخٍ عجوز لا ينطق لسانه، أو امرأةٍ عجوز أميّة جاهلة قد ضعفت ذاكرتها جدًا، أو مسلم غير عربي لا إلمام له بالعربية، كما ليس عنده من الوقت ما يحفظ فيه من القرآن ما فيه الكفاية. فالحق أن الرسول ﷺ بهذه الكلمات قد جبر خاطر هؤلاء القوم، وبين أن الثواب يكون بحسب الاستعداد للعمل، وليس بكمية العمل. فمثلاً هناك شخص ذو قدرة كبيرة ويعمل بحسب قدرته، وهناك شخص آخر ذو قدرة قليلة ولكنه يعمل بحسب قدرته أيضا، فالحق أنهما سيّان في الثواب عند الله، لأن كل واحد منهما قد ضحّى تضحية مماثلة. فقول الرسول ﷺ إن هذه السور تعدل نصفَ القرآن أو ثلثَه أو رُبعَه لا يعني أن سورة منها تحتوي على نصف مضامين القرآن أو ثلثها أو ربعها، إذ لو صحّ هذا لصارت هذه السور الأربع فقط أكثرَ محتوى من القرآن الكريم كله، إذ ورد هنا أن "الزلزلة" تعدل نصف القرآن، و"الإخلاص" ثلثَه و"الكافرون" ربعَه و"النصر" ربعَه، فهذه السور الأربع تعدل القرآن كله وثلثه. وهذا باطل عقلا ونقلا.

وإذا قيل أن المراد من الرواية أن بعض هذه السور تعادل نفسَ الربع مِن مفاهيم القرآن الذي اشتملت عليه سورة أخرى أيضا، وبعضها تعادل نفس الثلث مِن مفاهيمه الذي حوتْه سورة أخرى أيضا، فلا بد أيضًا من الاعتراف أن نصف مفاهيم القرآن مذكورة في سورة الزلزلة حتمًا إذ اعتُبرت مساوية نصف القرآن، وفي هذه الحالة لا بد لنا من التسليم أن نصف القرآن كلام لغو لا حاجة له والعياذ بالله، ذلك لأنه ما دامت نصف مفاهيم القرآن قد نزلت فيه فما الداعي أن ينـــزلها الله تعالى ثانية في هذه السورة القصيرة؟

ولو قيل هنا: أنتم أيضًا تعتبرون سورة الفاتحة ملخّص القرآن كله (البخاري: كتاب التفسير)، ومع ذلك تسلّمون بضرورة القرآن الكريم! فإذا جاز اعتبار سورة الفاتحة خلاصة القرآن كله فما الحرج في اعتبار سورةٍ مِن سوره مساويةً لنصفه وثلثه وربعه؟

والجواب أننا عندما نقول إن سورة الفاتحة هي خلاصة القرآن الكريم كله، فنوقن أنها احتوت على جميع مضامينه من ﴿الم﴾ أولِ لفظ من سورة البقرة إلى ﴿الناس﴾ آخر لفظ من القرآن. ولا شك أن هذا الأمر يزيدنا علمًا، بمعنى أننا حين لا نجد قضية في القرآن المفصّل نعود بحثًا عنها إلى الفاتحة التي هي القرآن المجمل، وعندما لا نجد قضية في القرآن المجمل (الفاتحة) نبحث عنها في القرآن المفصل (القرآن كله)، مما يعوِّد أفراد الأمة على التدبر وإعمال الفكر في القرآن مما يزيدهم علمًا. ومع ذلك لا نقول نحن ولا أي مسلم آخر أن سورة الفاتحة تنوب عن القرآن الكريم كله. هذه الأحاديث تقول إن من قرأ سورة كذا نال ثواب نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه، لكننا لا نقول أن من قرأ الفاتحة نال ثواب قراءة القرآن الكريم كله. فأنْ تعادلَ سورةٌ ما ربعَ مضامين القرآن أو ثلثها أو نصفها شيءٌ، وأما أنْ ينالَ المرءُ بقراءتها نصفَ الثواب الذي يناله بقراءة القرآن كله أو ثلثه أو ربعه فشيء آخر تماما. إذا كان المراد هنا أن سورة ما تعادل مضمون نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه، فيجب تعيين هذا النصف أو الثلث أو الربع من القرآن الكريم، لأن نصف القرآن الكريم يمكن أن يعيَّن بعدة طرق، فقد يكون نصفه الأول أو نصفه الأخير أو أجزاء مختلفة منه. أما الفاتحة فهناك تعيين بأنها خلاصة القرآن كله، وفي هذا التعيين نفع كبير فإننا حين نقرأ سورة الفاتحة بتدبر نفكّر كيف احتوتْ جميعَ مضامين القرآن، أو حين نقرأ سورة البقرة أو آل عمران أو النساء والمائدة والأنعام وغيرها نقرأها بتدبر وإمعان لنعلم كيف هي تبيّن مضامين الفاتحة. أما في هذه الروايات فلم يحدد الرسول ﷺ أي نصف من القرآن الكريم تنوب عنه سورة الزلزلة، أو أي ثلث منه تنوب عنه سورة الإخلاص، وأي ربع منه تنوب عنه سورة الكافرون أو النصر. ولو تدبرنا في هذه السور فليس بيدنا سبيل لنعرف النصفَ أو

الثلث أو الربع من القرآن الذي وردت فيه مضامينها مفصَّلةً؟ فمجرد القول أن سورة كذا تعادل نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه قول لا فائدة منه. كان ينبغي –في حالة قبول المعنى الذي يذكرونه للرواية– تحديد ذلك النصف أو الثلث أو الربع القرآني الذي ذكر مضامين هذه السور مفصلة، لكي يقارن المؤمن بين مضمون هذا النصف أو الثلث أو الربع مع مضمون هذه السور، تماما كما يمكن أن نتدبر في سورة الفاتحة وندرك منها مضامين القرآن الكريم كله. ولكن الرسول ﷺ لم يحدد هنا أي نصف أو أي ثلث أو أي ربع من القرآن تعادله هذه السور. فثبت بوضوح أن هذه الرواية لا تعني أن مضمون هذه السور تعادل نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه، بل الحق أن في كلمات الحديث نفسها ما يدعم موقفي، حيث ورد فيما رواه أبو هريرة: "مَن قرأ في ليلةٍ ﴿إِذَا زُلْزِلَت﴾ كان له عدلُ نصفِ القرآن" (فتح البيان). فالرسول ﷺ لم يقل هنا أن مضمون سورة الزلزلة يعادل نصف القرآن كما قال عن سورة الفاتحة إنها خلاصة القرآن الكريم، بل إن معنى قول النبي ﷺ في الظاهر هو أن ثواب قراءة سورة الزلزلة كثواب قراءة نصف القرآن.

غير أن هذا المعنى أيضا غير مقبول عقلا، لأنه إذا كانت سورة قصيرة تعادل نصف القرآن ثوابًا، فما الداعي أن يقرأ الإنسان القرآنَ كله؟ وإذا كانت سورة قصيرة تعادل نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه مضمونًا، فيجب تحديد هذا النصف أو الربع الذي جاء ملخصه في السورة المشار إليها، حتى إذا قرأه المرء بتدبر أدرك كيف احتوت هذه السورة مضامين ذلك النصف أو الربع من القرآن. فالواقع أن التسليم بهذه الروايات بهذا المعنى يماثل الدعاء المزعوم الذي يسميه البعض "دعاء كنـــز العرش" ويقولون أن من قرأه مرة نال ثواب عبادة جميع الأنبياء والأولياء والصالحين من زمن آدم حتى زمن محمد ﷺ. فإذا كان بوسع المرء نيل ثواب الأنبياء والأولياء والصلحاء كلهم بهذه السهولة فلماذا يلقي نفسه في المجاهدات والمشاقّ ابتغاءَ مرضاة الله؟ إنما عليه أن يقرأ هذا الدعاء وينال ما ناله الأنبياء والأولياء من الأجر والثواب. ولكن كل عاقل يدرك أنها لا تعني ذلك، إنما تعني أن إنسانا ضعيف الذاكرة لو حفظ ثلاث أو أربع سور قصيرة كهذه نال من الثواب ما يناله

عالمٌ قويُّ الذاكرة بحفظ القرآن كله. وهكذا قد بين الله تعالى هنا الفلسفة الإسلامية عن الجزاء، وبين أن الذي هو أكثر مالاً وبالتالي أكثر إنفاقًا لا يكون بالضرورة أكثرَ ثوابًا، بل إن من يضحي بحسب سعته وقدرته حق التضحية أكثرُ ثوابًا ممن ينفق أكثر في الظاهر ولكن نسبة إنفاقه أقلُّ مما عنده من المال. فمثلا هناك شخص يملك مليونًا من الروبيات وينفق منها عشرة آلاف في سبيل الله تعالى، وهناك شخص يملك مئة روبية فقط، وينفقها كلها في سبيل الله، فلا شك أن الأخير أكثرُ ثوابًا من الأول، إذ ضحى بكل ما في يده في سبيل الله، أما الأول فلم يُضَحِّ بكل ماله، بل بواحد بالمائة منه فقط، فهو رغم إنفاقه عشرة آلاف روبية أقلُّ ثوابًا ممن أنفقَ مائة روبية فقط.

وأوضَحُ مثال على ذلك هو أبو بكر ﷺ، فكان أقلَّ مالاً من عثمان ﷺ الذي تبرّعَ في غزوة واحدة بمال ربما لم يتبرع به أبو بكر في عدة سنوات، ومع ذلك كان الرسول ﷺ يثني على أبي بكر أكثر من عثمان. ذلك أن أبا بكر كان يضحي أحيانًا بكل ما يملك، لكن هذا ليس ثابتًا عن عثمان. وورد عن عمر ﷺ أنه أراد مرة أن يسبق أبا بكر ﷺ في التبرع، ظنًا منه أن أكثر ما أنفقه أبو بكر هو نصف ماله، فقرر أن يتبرع بنصف ماله. فذهب إلى الرسول ﷺ فَرِحًا بنصف ماله بأنه سيسبق اليوم أبا بكر حتمًا. فوجد عند النبي ﷺ أبا بكر وهو يقول له: يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيتُ لأهلي الله ورسوله. يقول عمر: لما سمعتُ ذلك قلت في نفسي: من المحال أن تسبق هذا الرجل. (أبو داود: كتاب الزكاة)

فرغم أن عثمان كان أكثر مالاً وتبرعا من أبي بكر، إلا أن النبي ﷺ كان يثني على أبي بكر أكثر من عثمان لأن التضحية التي قام بها أبو بكر ﷺ نسبةً إلى ماله تفوقُ تضحيةَ عثمان ﷺ نسبةً إلى ماله.

فثبت أولاً أن هذا الحديث يبيّن الفلسفة الإسلامية حول جزاء الأعمال، حيث أخبر أن الله تعالى لا ينظر إلى كمية المال، بل إلى نوعية تضحية الإنسان، فإذا كان ما تبرع به قليلا جدا، لكنه كل ما يملك، فلا بد أن تكون تضحيتُه أكثرَ جزاءً ممن أنفق أكثرَ ولكنْ أقلَّ مما يملك.

وثانيًا: بهذه الطريقة قد أنقذ الرسولُ ﷺ الضعيفَ وقليلَ الحيلة من الحسرة واليأس؛ فلن يشتكي الآن صاحب الذاكرة الضعيفة قائلا: ماذا أفعل الآن؟ فإني سأظل محرومًا من الثواب الكبير الذي يناله ذوو الذاكرة القوية بحفظ الكثير من القرآن؟ فإنه حين يعلم أن النبي ﷺ قد قال إن مَن قرأ سورة الزلزلة نال ثواب نصف القرآن، فسوف يرقص قلبه فرحًا، ويقول: نعمْ، أستطيع حفظ سورة الزلزلة، فلأحفظْها لأنال ثوابًا كثواب من حفظ نصف القرآن. كما لا يصعب عليَّ حفظ سورة "الإخلاص" و"الكافرون" و"النصر"، ولو حفظتُها كلها لكان ثوابي كثواب مَن حفظ القرآن الكريم كله، وهكذا يزول عنه اليأس والحسرة ويفيض قلبه بهجة وسرورًا، ولا يلبث أن يقول: لا داعي للقلق، فإن الله تعالى قد فتح لي أيضا أبواب القرب والثواب على مصارعها.

والدليل الآخر على أن هذا هو المراد من هذا الحديث هو أن الرسول ﷺ دعا هذا الذي سأل عن سورة جامعة ليتخذها وِرْدا له، وأخبره أن هناك عيد الأضحية في الإسلام أيضا. وقوله ﷺ هذا يبدو عديمَ الصلة بقوله السابق، فبدلاً من أن يخبره ما يوجد في الإسلام من أحكام ضرورية كثيرة -علاوة على قراءة القرآن- كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وغيرها قال ﷺ له: هناك عيد الأضحية في الإسلام أيضا! فما أهمية عيد الأضحى إزاء هذه الأحكام حتى يقول الرسول ﷺ للسائل بوجه خاص: تعالَ أيها الرجل، فهناك حكمٌ آخر في الإسلام وهو عيد الأضحى؟ لو أراد النبي ﷺ أن يخبره بالمزيد من الأحكام لنبّهه إلى المسائل الهامة قائلا: لا تكتفِ بحفظ سورة الزلزلة من القرآن، بل اعلمْ أن هناك أحكاما أخرى في الإسلام، فعليك أن تصلّي وتزكّي وتصوم وتجاهد أيضًا. لكنه ﷺ اكتفى بقوله: هناك عيد الأضحية في الإسلام. وهو قول لو أخطأنا في معرفة ما فيه من المغزى آخذين بظاهر الكلمات، لكان مَثلنا كمَثل خادمة يقال أنها كانت تستيقظ وقت السحور في رمضان وتتناول السحور مع أهل البيت، ولكنها لم تكن تصوم. وكانت ربّة البيت سيدة صالحة رحيمة، فظنت أنها إنما تشقّ على نفسها وتستيقظ لتساعدها لإعداد السحور، إذ لو كانت تستيقظ من أجل الصوم لصامت، فقالت

للخادمة يوما: إنك لا تريدين أن تصومي، فلا تعرّضي نفسك للمعاناة بالاستيقاظ من أجل إعداد السحور فسوف نحضّره بأنفسنا. فقالت: أنا لا أصلي ولا أصوم، فهل تريدين أن أصبح كافرة بعدم تناول طعام السحور؟

فكما أن هذه الخادمة قدّمت طعام السحور على الصلاة والصوم، كذلك فإن الأخذ بظاهر هذا الحديث يعني أن الإنسان إذا قرأ سورة الزلزلة بالليل وضحّى بكبشٍ يوم العيد فقد عمل بجميع أحكام الإسلام. كلا، ليس هذا هو معنى هذا الحديث أبدًا. إننا نجد هنا أن النبي ﷺ يستدعي الرجلَ ثانيةً ويخبره بأن هناك عيد الأضحى في الإسلام دون أن يذكر له أحكام الإسلام الأخرى، ثم حين يقول له الرجلُ: ليس عندي إلا ناقة أهدانيها أحد، فهل أضحي بها، يقول له النبي ﷺ: لستَ بحاجة إلى ذبحِ شيء، بل يكفيك أن تقصّ شعرك وشواربك وتقلّم أظافرك وتحلق عانتك.. فهذه أضحيتك. والحق أن النبي ﷺ لم يقل له ذلك إلا ليبين له ولغيره من الحضور ما في قوله السابق مِن حكمة وفلسفة. لقد نهاه الرسول ﷺ عن ذبح ناقته الوحيدة ليقول له: إنك رجل فقير، فقصُّك شعرك وتقليمك أظافرك وحلقك عانتك مرادف لتقديم الأضحية. وهكذا بيّن النبي ﷺ أن الفقير الذي لا يملك الكثير وضعيف الذاكرة الذي لا يقدر على حفظ الكثير من القرآن سيان، فكما أن الفقير إذا قصّ شعره وقلّم أظافره فكأنه قدم أضحيته، كذلك من كان ضعيف الذاكرة عليل الصحة كبير السن وغير قادر على حفظ كثير من القرآن، فإنه إذا حفظ سورة الزلزلة فقط فكأنه حفظ القرآن كله. هذه هي الفلسفة وراء استدعاء النبي ﷺ لهذا الشيخ والتي أراد بيانها له ولصحابته.

فالحق أن الرسول ﷺ لا يشير في هذا الحديث إلى أن هذه السور تساوي نصف مضامين القرآن أو ثلثها أو ربعها، إذ لو كان الأمر كذلك، لظل هذا التساوي قائمًا بالنسبة للضعيف والقوي، ولكنه ﷺ لم يعتبرها متساوية للجميع، بل قد بيّن بذكر الأضحية أن الفقير إذا لم يستطع تقديم الأضحية، فبوسعه نيلُ ثوابها بحلق شعره وتقليم أظافره، وكذلك فمن كان ضعيف الذاكرة والصحة ولم يقدر على حفظ القرآن كله، فإنه لو حفظ سورة الزلزلة نال ثواب حفظ نصف القرآن.

إذن، فرغم أنّ الإنسان إذا حفظ سورة الزلزلة والإخلاص والكافرون والنصر نال ثواب حفظ نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه بحسب هذا الحديث، إلا أن هذه السهولة ليست لكل إنسان، إنما هي للضعيف وعليل الصحة الذي لا يقدر إلا على حفظ الزلزلة والإخلاص والكافرون والنصر، وهو إذا قرأ سورة الزلزلة فكأنه قرأ نصف القرآن عند الله تعالى.

فثبت أولاً أن هذا الحديث لا يتحدث عن معاني هذه السور، كما لا يتحدث عن كل شخص، وإنما قد فتح النبي ﷺ به باب السهولة للضعفاء ذوي العذر. فالرسول ﷺ عندما دعا هذا السائل ثانيةً ونصحه بحكمٍ هو أقل أهمية بكثير من حكم الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد، فقد أراد بذلك إزالة سوء الفهم الذي قد يتولد عنده أو عند الآخرين بقوله السابق، فيظنوا أن سورة الزلزلة وغيرها تساوي نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه فعلاً، لذلك فلا حاجة بهم إلى حفظ القرآن الكريم كله.

ثانيا: الجدير بالذكر هنا أن الرسول ﷺ قد اعتبر حفظ هذه السور البِضْع ثروةً، وهذا يكشف قوة إيمانه ﷺ برسالته، ويبين مدى تقديره للوحي الذي نزل عليه، حيث كان يرى أن من حفظ نزرًا يسيرًا من الوحي النازل عليه ﷺ لم يعُدْ غيرَ قادر على سدّ حاجاته كلها، ولا يمكن أن يُعَدّ من المحتاجين الذين لا يملكون شيئا. وإيمانه هذا بوحيه ليس دليلاً على صدقه وسداده ﷺ فحسب، بل يدل أيضًا على أن وحي الله تعالى كان قد استولى على كل ذرة من كيانه، فكان يراه أهمَّ من كل شيء.

ثالثا: كما يدل ذلك على ثقة النبي ﷺ بإيمان صحابته أيضًا، فكان موقنًا أن صحابته أيضا يعتبرون القرآن ثروة عظيمة، وإلا لأصبح لا معنى لقوله لذلك الصحابي بأن يتزوج ما دام يحفظ بضع سور، إذ كيف يتزوج هو إذا لم يعطه أحد ابنته؟ أعني أن البنات وآباءهن إذا لم يكونوا يعتبرون القرآن ثروة عظيمةً و لم يكونوا موقنين أن من حفظ جزءا قصيرا منه فكأنه صار ثريًا، لما أمر الرسول ﷺ هذا الصحابي بذلك، وبالتالي لم يستطع هو العمل بوصيته ﷺ في تلك الحالة.

رابعا: كما تبين من هذه الرواية أنّ قراءة المسلمين القرآن في ذلك الوقت كانت مرادفةً لفهمه، وفهمهم للقرآن كان مرادفًا للعمل به، وإلا كيف يصبح المرءُ ثريًا بحفظ بضع سور قرآنية؟ أما اليوم فإن المسلمين لا يقرءون القرآن أولاً، أما الذين يعرفون قراءته فعددهم قليل، وأما الذين يفهمونه فَهُمْ أقل منهم بكثير، وأما الذين يعملون بظاهر القرآن -دعك عن باطنه- فَهُمْ أقلّ بحيث يُعَدّون على الأصابع، فكيف يمكن -والحال هذه- أن يحترم الناس هذه الحفنةَ؟ وأَنَّى لأُمّةٍ تعامل كتابها السماوي بهذا الاحتقار أن تلقى أي تكريم أو تعظيم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

إِذَا: لقد ذكرتُ من قبل أيضًا أن "إذَا" للمستقبل، أما "إذْ" فللماضي.

زُلْزِلَتْ: زَلْزَل الله الأرضَ زَلزلةً وزِلزالاً وزَلزالاً وزُلزالاً: أرجفَها. وزَلْزَل فلانًا: خوَّفه وحذَّره. وزلزلَ الإبلَ: ساقَها بعنفٍ. والزلازل: الشدائدُ والأهوال. (الأقرب)

التفسير: كان المفروض بحسب القاعدة العادية أن تكون الآية كالآتي: "إذا زُلزلت الأرضُ زلزالاً"، فلماذا قيل هنا: ﴿زلزالها﴾؟

الجواب: أن القول: "إذا زلزلت الأرض زلزالا" يعني فقط أنها زُلزلتْ بشدة، أما إضافة الزلزال إلى الأرض فهي إشارة إلى أن الحديث هنا إنما هو عن زلزلة مقدَّرة موعودة، وليس عن زلزال - أيِّ زلزال - مهما كان عنيفا. ذلك أن الزلازل تقع دائمًا ولو بعد مئات السنين، لكنها لا تستحق أن تسمى "زلزالها" لأنها تقع دائمًا. فلا يمكن أن يقال ﴿زلزالها﴾ إلا لزلزلة لها علاقة خاصة بالأرض، وتهزّ الأرضَ كلها، حتى لا يقال: قد وقع زلزال في الأرض، بل يقال: قد وقع زلزال الأرض، أي زلزالها المقدَّر. وبسبب هذه الصياغة الغريبة لهذه الآية تبادر إلى أذهان المفسرين

أنها تشير إلى زلزلة القيامة التي تبدّل الأرض كلها وتجعل عاليَها سافلَها. (فتح القدير، وجامع البيان)

الثابت من القرآن والحديث أن الدمار سيشمل الأرض كلها يوما ما، ولكن ليس ثابتًا عندي مِن أي نص أن هذا الدمار سيحل بها نتيجة زلزال، بل يبدو من الأحاديث أن الشمس سوف تدنو من الأرض... فتدمّر العالم كله من شدّة حرّها (المعجم الكبير للطبراني باب الميم، المقدام بن معدي كرب الكندي). ومهما يكن، فإن صياغة هذه الآية تدل على أنها إما تعني زلزلة القيامة أو أمرًا مشابها بالقيامة ذا صلة بالعالم كله. والرأي الأخير هو رأيي الشخصي أيضا، وسوف أستدل من الآيات التالية لهذه السورة على أن الزلزلة هنا لا تعني القيامة الكبرى، بل تشير إلى انقلاب عظيم يقع في العالم قبل القيامة، وهو مقدّر في زمن المسيح الموعود عليه السلام، وسُمّي القيامة، ويمكن أن يسمى قيامةً بسبب اتساع نطاقه وأهميته وخطورة نتائجه.

لقد بيّنتُ آنفًا أن من معاني الزلزال: الإرجاف والتخويف والتحذير، وعليه فقوله تعالى ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ يعني أن الأرض كلها ستُرجَف، وتُخوَّف وتُحذَّر، وهكذا فقد وردت الأرض هنا بمعنى واسع، أي الأرض وأهلها أيضًا، ومثاله قوله تعالى على لسان إخوة يوسف لأبيهم ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ (يوسف:٨٣). فالمراد من القرية هنا أهلها، ومن العير أهلها الذين كانوا يسوقون هذه الركائب. وفي لغتنا أيضًا يقولون: قد علمت القريةُ كلها هذا الأمرَ.. أي علمه أهلها كلهم. إذًا فقد أخبر الله تعالى في الآية قيد التفسير أنه سيأتي وقت سوف تُرجَف الأرض كلها ويتم تخويف أهلها وتحذيرهم.

وبالنظر إلى أحداث التاريخ حتى اليوم نتوصل إلى أن هذه الآية ترسم لنا صورة هذا العصر الذي نعيش فيه. ففيما يتعلق بإرجاف الأرض فهذا هو الزمن الذي نرى فيه الأرض ترجف من كثرة القطارات التي تجري عليها ليل نهار ومن كثرة المصانع التي تعمل عليها ليل نهار، فليس من الأرض بقعة لا ترتجف لهذه الأسباب. فلو ذهبت إلى منطقة المصانع أو اقتربت من السكة الحديدية وقت مرور القطار عليها لخيل إليك أن الأرض زُلزلتْ زلزالها.

أما ارتجاف أهل الأرض فنجد السباق بين أهلها على أشده حتى يخيل لك أن الناس في العالم المتحضر لا يمشون، بل يجرون، وترى الدنيا بالليل بحالة وفي الصباح بأخرى.

كما ارتجفت الأرض من اختراع وسائل الحرب بكثرة. لقد أصحبت الحروب مخيفة لكثرة الأسلحة الفتاكة. فتُقصف المدن حتى تحدث حفر في الأرض كالمغارات. كما كثُرت الزلازل بحسب وحي الله تعالى، فمحت آثارَ كثير من القرى والمدن من سطح الأرض.

فثبت أن الأرض قد أُرجفتْ في هذه الأيام رجفًا لا نظير له، ذلك أن الأرض كانت ترجف في الماضي بالزلازل فقط -التي قد تكون بعضها أكثر شدّة من الزلازل الحالية- أما الآن فأولاً إنها ترتجف من كثرة الزلازل العالمية والمتواترة، وثانيًا: أثّر قصف المدافع والطائرات والقنابل الديناميتية والذرية في كل بقعة من الأرض حتى ارتجفت ارتجافا هائلا، وثالثًا: ترتجف الأرض ليل نهار بسبب القطارات والمصانع التي تعمل فوقها وتحتها من القطب الشمالي إلى الجنوبي ومن الشرق إلى الغرب. وهذا لم يحدث في الماضي قط. ولو استمر هذا التقدم الصناعي فسوف ترتجف الأرض أكثر.

والمعنى الثاني للأرض هو أهلها، وكما بينت آنفًا قد نجد أنهم قد أُرجفوا أيضا رجفًا لا مثيل له في الماضي. فثبت أن المراد من ارتجاف الأرض:

أولاً: خلقُ صحوة في أهل الأرض، وثانيا: تخويفهم، وثالثا: تغيرٌ غير عادي بين الناس أسبابُه -إضافةً إلى أمور أخرى: التغيرات الجذرية في السياسة والمعيشة والدين والأخلاق والعلوم والاقتصاد. فكل هذه الأمور قد ظهرت في هذا العصر لإرجاف أهل الأرض كما يتضح من التالي:

أولاً: الصحوة. في الماضي، إذا تولدت الصحوة، ففي حفنة من الناس من عِلية القوم، إذ كان النظام الملكي أو نظام حكم عِلية القوم هو القائم في العالم، فالانقلاب الحاصل في العائلة الملكية أو في حكومة الأمراء لم يكن يؤثّر إلا على بضع عائلات أو أفراد أو بعض الموظفين وما كان لعامة الناس علاقة به أو رغبة

فيه. أما اليوم فحيثما نظرتَ وجدتَ الحُكم بيد العامة. لقد انمحت الملَكية، وإذا كانت في بلد فبالاسم فقط. تعمل قوة عامة الناس غير المحدودة عملها في الخفاء كما نرى في إنجلترا وبلجيكا وهولندا. ولا تزال هذه الصحوة والشعور عند العامة – أن المُلك للجماهير وليس لشخص أو أشخاص – تزداد اليوم باطراد. لم يعُدْ عرش المُلك منحصرًا في القلاع، بل ترى عرشًا في كل قرية بل في كل بيت –كبيرا أو صغيرا من ناحية المجد الدنيوي– وتجد كل فرد يشعر أنه شريك في الحُكم والمُلك على قدم المساواة. فكلما حصل انقلاب لم يُرجِفْ صدور الملوك وعِليةِ القوم فحسب، بل أرجف قلب كل فرد إلى الأعماق، فالرجفة التي كانت تتولد على سطح البحر – فقط في الماضي – تهزّ الآن قاعه أيضا بحيث يصعب على الأسماك العيش فيه. لقد شاع التعليم والصنائع والحِرف. والعلوم والفنون التي كانت تنتقل بالإرث بين أسر معينة قد عمّت الآن وانتشرت واطّلع عليها الجميع. والأمور التي كانت تُعتبر من العظائم – وخاصة بفئة محدودة جدا – أصبحت تُؤدّى على قارعة الطريق بكثرة، وتجد لدى كل صغير وكبير، طموحًا للتقدم والرقي باستمرار.

وثانيا: تخويف الناس. فقد بلغ تخويف الناس الذروة اليوم، حيث تثار الخلافات السياسية والدينية على نطاق واسع بحيث يرتجف قلب كل عاقل ويقول: ماذا سيحصل غدًا. قد شاع الذعر بين الجميع، فالفرد يخاف من الفرد، والحزب يخاف من الحزب، والقوم يخاف من القوم والدولة تخاف من الدولة. ولا يبرح الزعماء يُذْكون فتيل هذا الخوف لكون روح التنافس قد بلغت أوجها حتى لا تجد في العالم شيئًا اسمه العدل والإنصاف، وبالتالي لا تجد أي أمة أو دولة تنعم بالاطمئنان. فلأن الحُكم صار في يد الجماهير وأصبح الصلح والحرب في أيدي العامة فلا يبرح الزعماء والحكومات يُلهِبون مشاعر العامة –حفاظًا على حُكمهم أو بسطًا لنفوذهم– مخافة أن يهدأوا فينتقل الحكم إلى حزب آخر أو يستولي على دولتهم شعب آخر. فتجد بسبب ذلك رجفةً متواصلة غير منقطعة في شعوب العالم.

وثالثا: تغيرٌ غير عادي. بسبب هذه الزلزلة قد حصل تغير عظيم في العالم حتى انقلب كل شيء فلم يعُدْ كما كان في الماضي. خُذوا مثلاً:

أ- السياسة: فهي ليست كما كانت في الماضي، فقد تغيرتْ مبادئها كلية. في الماضي كان المراد من السياسة تفاوُض ملك مع ملك آخر، أما اليوم فالحُكم في يد العامة، فلم يعُدْ نطاق السياسة محصورًا في تعيين الحدود بين بلد وآخر، بل أصبحت اسما للتدخل في كل شعبة من شعب حياة الناس أينما وجدوا. لم يكن الملوك في الماضي يهتمّون بأوضاع البلاد الأخرى وسكانها: كيف يأكلون ويكسبون ويدرسون وماذا يتعلمون، وما هي حالة معيشتهم وما هي قوانينهم؟ أما اليوم فالسياسة تتدخل في كل هذه الأمور، وترى هذا التدخل ضروريا. من ناحية يدَّعون الحرية ومن ناحية أخرى يعلنون أنهم لن يسمحوا للدول الضعيفة بممارسة الحُكم الذي لا يتوافق مع مبادئهم السياسية. فأحيانًا تضغط الدول القويةُ على الضعيفة لكي تمنحها حرية التصرف في مناجمها، وأحيانا تُكرِهها على اتباع نفس النظام الذي تعمل به بنوكها أو أن تستعير منها وزير المالية، وأحيانا تفتح كلياتها في البلد الآخر قسرًا، وأحيانا تفرض الحظر على تجاراتها وصناعاتها وحِرفها، فتسمح لها بصنع بعض الأشياء وتمنعها من أن تصنع غيرها.

فالسياسة القديمة تبدو اليوم كولدٍ غبي مقابل السياسة الجديدة. لقد صار الحكم في أيدي العامة وقد قُضيَ على النظام القديم وضرب به عرض الحائط.

ب- المعيشة: أما الثورة الحاصلة في المعيشة فلا حدود لها، فما كان يُعتبر من قبيل البذخ ومن حق الأثرياء فقط، قد صار اليوم مِلْكًا للعامة. والأطعمة التي تيسرت الآن لفقراء الدول المتحضرة لم تكن ميسرة للأثرياء في الماضي، فالفقير في الدولة المتحضرة يأكل سمك المحيط الهادي جالسًا بعيدا عنه آلاف الأميال، ويستمتع بأكل السردينَ البرتغالي والخوخَ الكاليفورني والإجاصَ الإيطالي والعنب الأفغاني والبرتقال الأسترالي والكلمنتينا الياباني والموز الإفريقي والمانجو الهندي، ومع ذلك يشتكي من فقره، رغم أن هذه الأشياء لم تكن تتيسر للأثرياء في الماضي. لو أُعيد رجلٌ من عهد فرعون مثلاً إلى الحياة اليوم ورأى بعض العمال الأوروبيين يتناولون الطعام، فربما ظنهم فراعنة مصر وقال ها قد أصبح الفراعنة أكثر غنًى وتوفّرتْ لهم

أسباب الرخاء والبذخ أكثر. وأما اللباس فما لم يكن ميسرًا منه للطبقة المتوسطة أو للأثرياء العاديين في الماضي يلبسه الفقراء في الدول المتحضرة. وإن أنواع اللهو والعروض التي كان يتمتع بها كبار الملوك حتى كان الناس يتهمونهم بسببها بالانغماس في الملذات، يمكن أن يشاهدها أي فقير اليوم بدفع ربع روبية، مع الفارق أن الملك كان يشاهد هذا اللهو نادرًا، أما فقير اليوم فيشاهده يوميا. إذا كان هناك شيء اسمه اِنْدَرسَبَها – أي ملهى اِندر – فلا يجاري دُورَ السينما اليوم. واللباس الذي كانت الملكات والأميرات تظهر به أمام المهاراجا "اِندر" وغيره من المهاراجات الهنود في الماضي، لو ظهرتْ به إحدى الممثلات اليوم في الفيلم فلعل الجمهور يحطّمون شاشة العرض مستائين من لباسها.

كما لم تعُدْ العلاقات بين الزوج والزوجة، والوالدين والأولاد، والأستاذ والتلميذ، كما كانت في الماضي، ولو جاء اليوم رجل الماضي لأصابه الجنون من شدة الذهول. في الماضي كانت الزوجة تخدم زوجها، أما اليوم فالزوج يمشي وراء زوجته حاملا مظلتها ومعطفها. في الماضي كان الزوجان يتبادلان كلمات الحب والغرام في غرف مغلقة بعيدا عن أقرب الأقارب، أما اليوم فتراهما لا يسأمان من نداء بعضهما البعض: "دارلنج دارلنج"، وتجد الرجل يقبِّل المرأة على محطة القطار بين آلاف الناس، بل بأريحية كأنه يقوم بعمل عادي جدًّا. لم يبق للوالدين اليوم أي حق على أولادهم، بل لا يقرّ الأولاد بأي حقّ لهم، وأصبحت خدمة الوالدين فكرة بالية. كان المعلّم سيدًا في الماضي، أما اليوم فصار خادمًا. في الماضي لو قام المعلّم بتعليم أحد –ولو مقابل مال– كان التلميذ يعتبره إحسانا منه، أما اليوم فيُعتبر التعليم خدمة كالخدمات الأخرى. يحكى أن هارون الرشيد الخليفة العباسي –الذي كان مُلكه ممتدا من أوروبا إلى أقصى آسيا– طلب من الإمام مالك ذات مرة تخصيص بعض الوقت لتعليم ابنيه المأمون والأمين، فرضي الإمام بشرط أن يحضرا عنده في بيته. وذات يوم ذهب الخليفة إلى بيت الإمام ليرى كيف يتعلم ولداه، فلما همَّ الإمام بالخروج لاستقباله أسرع المأمون ليضع أمام الأستاذ حذاءه، وكان الأمين أحبَّ إلى الخليفة – إذ كانت أُمه أحبّ زوجاته – ولكنه لما رأى هذا المشهد قال: يبدو أن المأمون سيرث العرش بعدي.

هكذا كان الوضع في الماضي، أما اليوم فنرى الأوضاع على عكس ذلك تماما.

ج – الأمور الدينية: لقد سقط الدين مكبًّا على وجهه بما لا يُتصوَّر. في الماضي إذا قصّر البعض في أمر الدين ندم وحاول إخفاء تقصيره عن الآخرين، أما اليوم فمن احترم الدين عُدَّ من الجاهلين. في الماضي كان الكلام ضد الدين جريمة عظيمة، أما اليوم فالكلام بحق الدين يُعتبر حماقة. في الماضي كان الدين يحكم الناس، أما اليوم فالناس يحكمونه. لقد أصبحت كلُّ دولة تقدِّم دينًا يتفق مع مآربها، فالكنيسة السوفياتية (الروسية) تعتبر المبادئ السوفياتية عينَ تعاليم المسيحية، أما الكنيسة الأمريكية فتعتبر الاشتراكية خلافًا لمبادئ المسيحية، أما الكنيسة الإنجليكية فتعتبر المَلَكية المحدودة والمَلَكية الدستورية صورةً حقيقة للمسيحية. والقسيس الفرنسي يعتبر النظام الجمهوري صورةً حقيقية للإنجيل، أما القسيس الفاشيّ فيعتبر الفاشية روح الدين تماما. والمناطق الهندية التي يتمتع فيها حزب الكونجرس بالأغلبية، يرى أهلها أن القرآن يعلّم التمرد على الحاكم، أما المناطق ذات النفوذ الإنجليزي فيرى أهلها أن تعاليم القرآن تؤيد الحضارة الغربية. وترى ديانة "الشنتو" اليابانية وكأنها تدعو إلى نشر بركات المَلَكية اليابانية. عندما كان للدين صوت قوي وكان يُعتبر جزءًا لا يتجزأ من حياة الناس، كانوا يقولون إن الله خلق الإنسان، أما الفلسفة المعاصرة فتعلن بكل جسارة: لسنا لنؤمن بإلهٍ خَلَقَنا بيديه، بل إن الدنيا بحاجة إلى إله خلقَتْه بيديها. إنهم يقولون نهارًا وجهارًا أن كل الفساد والدمار والهلاك الذي عمّ الدنيا إنما سببه الاعتقاد بإله يُعتبر خالقًا للدنيا، مع أن سلام العالم وفلاحه وتقدّمه في المستقبل منوطٌ بأمر واحدٍ، ألا وهو أن عامة الناس كما يختارون لأنفسهم المَلَكية ويحددون بأنفسهم سُلطتها، كذلك لن ينجح في إرساء السلام في العالم إلا دينٌ يقدم إلهًا يحدّد له عامةُ الناس كيف يفكّر وكيف يعمل.

أما التفسير العلمي للأديان فتمّ على منوال لن يملك المرء بعده إلا أن يستعيذ بالله. فليست المسيحية اليوم نفس المسيحية التي كانت قبل قرن من الزمان، وليست الهندوسية كما كانت قبل قرن من الزمان، وليس الإسلام اليوم كما كان قبل قرن

من الزمان. لقد اعتبروا العقائد القديمة أفكارا بالية متهرّئة. لقد أوّلوا النصوص الصريحة القطعية، واعتبروا العبادات لغوًا والعقائد أوهامًا. ولم يفعل ذلك الدهريون، إنما فعله أتباع هذه الأديان أنفسهم. ومَن رفع الصوت ضدهم اعتبروه ملحدًا مردودًا. فالوضع كما قال الشاعر (حَسْرت):

خرد کا نام جنوں رکھ دیا جنوں کا خرد

جو چاہے آپ کا حسنِ کرشمہ ساز کرے

أي سميتَ العقل جنونًا والجنونَ عقلا، فليفعل حُسنك الساحر ما يشاء.

د- الأخلاقيات. لقد وقع في هذه القضية الهامة زلزال عنيف. إن أكبر مسائل الأخلاق هي الصدق والأمانة والعفة والعدل، ولكن نظريات الناس قد تغيرت عنها كلية في الزمن الراهن. فلم يعُدْ للصدق اليوم نفس مفهومه الذي كان بالأمس، إذ يعتبرون الصدق عيبًا في الدبلوماسية، أي في أمور السياسة بين الدول. إن كبار شرفاء القوم ونبلاءهم يذكرون بكل فخر كذبهم الذي خدعوا به أعداءهم. لقد أشاع الإنجليز في الحرب العالمية الثانية أن الألمان يصنعون الصابون من شحم الموتى، فشاع هذا الخبر على نطاق واسع، فوجّهت الدول المحايدة اللوم إلى الألمان، ولكن بعد الحرب اعترف الشخص الذي أشاع هذه الإشاعة أنه اختلق هذا الخبر ونشره في مطعم لضباط الجيش من أجل الدعاية ضد الألمان. كما أشاع الإنجليز أن الألمان يطلقون الرصاص على الجنود أثناء غرقهم مع سفنهم، لكن الغريب أن رجال القوات البحرية البريطانية قدّموا للبحرية الألمانية بعد الحرب درعًا مكتوبًا عليه: يُقدَّم هذا الدرع شكرًا وتذكارًا لمعاملتكم النبيلة المتعاطفة مع غرقانا في أيام الحرب.

أما الألمان فأيضا قد لجأوا إلى الكذب والزور بلا حدود، ففي زمن الحرب العالمية الأولى لم يكن المذياع قد اختُرع بعد، أما في الحرب الثانية فقد سمعتُ أخبار الحرب مرارا من قِبل الألمان واليابان عبر المذياع، لقد افتروا في أخبارهم إلى حدٍّ مذهل. فكم من مرة سمعت من الإذاعة الألمانية خبر اندلاع الفتن والفوضى

في الهند على نطاق واسع، مع أنه لم يكن هنا أي شيء منها. ولدى سماع هذه الأخبار كنا نتخيل أننا نعيش في عالم آخر، أو أن الهند في لغة الألمان بلد غير بلدنا.

لقد قمت بمطالعة بعض الكتب عن الحرب العالمية الأولى، حيث تحدثَ كبار الساسة عن كذباتهم الفاضحة بفخر وبدون خجل بما يذهل المرء.

ولي خبرتانِ شخصيتان بهذا الصدد. فعندما زرتُ إنجلترا لحضور مؤتمر الأديان المنعقد هناك، قُرِئتْ فيه يومًا محاضرة للخواجة كمال الدين، فلم أحضرها وإنما حضرها الشيخ يعقوب عليّ العرفاني بصفة صحفيٍّ ليسجل ما يقال. وهناك جريدة باسم "ديلي نيوز" –وهي أكبر جريدة للحزب الليبرالي وتطبع بمئات آلاف النسخ، وقد ضُمّت الآن إلى جريدة كبيرة أخرى اسمها ديلي كرونيكال، وأصبح اسمها نيوز كرونيكال– فجاء محرّر هذه الجريدة للقائي خاصة، فتحدثَ أولاً مع شودري ظفر الله خان المحترم وقتًا طويلا، ثم قابلني أيضا. ولكن هذه الجريدة نفسها نشرتْ خبرا بأن محاضرة الخواجة كمال الدين كانت رائعة شيقة أعجبت الجميع حتى إن إمام الجماعة الأحمدية – ذا اللون الأسود – كان يسجل ملحوظاته جالسًا في الصف الأمامي. فاتصل عزيزي محمد ظفر الله خان بمحرر الجريدة هاتفيًا وقال: ما هذا الذي نشرتم في جريدتكم؟ وكان يعني أن إمام جماعتنا ما كان بحاجة للجلوس هناك وتسجيل ملحوظاته، إنما كان ذلك أحد الصحفيين. ولكن بمجرد أن سمع المحرر صوت محمد ظفر الله خان أخذ يعتذر إليه بأنه متأسف جدا شخصيا، فقد قابلتُ إمام جماعتكم، وإني لمنشغل فيما سيقول الإمام بما كتبنا عنه، الواقع أن هذا الخبر قد أعده أحد الصحفيين ولكن المحرر الآخر نشره بدون تأكد، وسوف ننشر غدًا تصحيحا للخبر، فأرجو أن تقدّم لحضرة الإمام معذرتي. فترك شودي ظفر الله خان الهاتفَ فرحًا وجاء وأخبرني بما تمّ. وفي اليوم التالي نشرت الجريدة التصحيح كالتالي: إننا نأسف أنه قد نُشر خبر في جريدتنا عن إمام الجماعة الإسلامية الأحمدية بأن لونه أسود، والحق أن بياضه يشبه بياض العاج.

فكدنا نموت ضحكًا بما قرأنا، وقلنا ما هذا التصحيح الذي نشروه. فاتصل حضرة الشودري بمحرر الجريدة ثانية وقال له: حضرة المحرر، نحن لا نبالي أن تقولوا أن لون إمامنا أسود، فيمكنك أن تكتب أنه أشد سوادًا مما ذكر. لقد نشرتم أن هذه المحاضرة كانت شيقة حتى إن إمام الجماعة الأحمدية ظل يسجّل ملاحظاته جالسا هناك، وهذا الكلام مسيء إلى حضرته، كما أنه باطل. فرد عليه محرر الجريدة: إنني متأسف جدا، فقد كنتُ صُدمتُ بلفظ "الأسود" جدًا حتى لم أسمع كلامك جيدا على الهاتف، فظننت أنك تشتكي عن سواد اللون، غير أني متأسف الآن، لأن من سياسة جريدتنا ألا ننشر تصحيحًا لخبر نُشر فيها، ومع ذلك قد نشرنا تصحيحا للخبر الأول احترامًا لكم، ولن ننشر تصحيحًا للخبر الثاني إذ فيه إساءة لجريدتنا، فاقبلْ معذرتي.

وكانت هناك جريدة أخرى اسمها "مورننج بوست" وهي من الصحف الكبيرة، وتُنشر من قبل حزب المحافظين، وربما كان السير "أدوايز" عضوا في لجنة المشرفين عليها، ولأنه كانت بيني وبينه علاقات فمن الأغلب أنه بتوجيهٍ منه كانت هذه الجريدة تنشر أخبارا كثيرة عنا، وقد توقفت هذه الجريدة الآن وضُمّتْ إلى جريدة الديليتلغراف. كان ممثّلها أيضًا موجودًا على محطة القطار في اليوم الذي كان من المقرر أن أصل فيه إلى لندن، ولكن القطار تأخر، فأُخبرَ الناس على المحطة أن القطار سيصل متأخرا عدة ساعات. فتفرقَ الناس الذين جاءوا لاستقبالي، ولكن ما حدث هو أن القطار وصل قبل الموعد الثاني بوقت، فحاول داعيتنا السيد نيّر المحترم أن يبلّغ ممثلي الجرائد بأن القطار سيصل مبكرًا قليلاً، فتمكنَ مِن إخبار البعض و لم يتمكن من إخبار الآخرين بمن فيهم ممثل جريدة "مورننج بوست"، إذ فشل في الاتصال بمكاتبهم. وفي اليوم التالي نشرت الجرائد كلها خبر وصولي إلا "مورننج بوست"، فاشتكى السيد نير المحترم من أصحابها، فقيل له إننا لا ننشر أي خبر نقلاً من جرائد أخرى. فقال: ها أنا أُخبركم الآن، فانشروا الخبر الآن. فقيل له: ألن يقول الناس إن "مورننج بوست" تنشر هذا الخبر متأخرة عن الجرائد الأخرى بيوم. فنسينا الأمر.

ثم عندما حان عقد مؤتمر الأديان ونُشرت الإعلانات عن محاضرتي في المؤتمر نشرتْ "مورننج بوست" إعلانا رائعا كبيرا مع صورتي كالآتي: وصول إمام الجماعة الأحمدية إلى لندن. فظنّ القراء لعل إمام الجماعة الأحمدية كان قد سافر من لندن ورجع إليها الآن ثانية.

هكذا فإن هذه الجريدة قد أتت بنا إلى لندن ثانية إيهامًا للناس أنها لا تنشر إلا أخبارا طازجة.

هذه الأحداث المؤلمة تحيّر المرء فيقول: هل انقلب مفهوم الصدق اليوم عند الناس؟ في هذا العصر قد حلت الدعاية المقامَ الأول، والصدقُ المقامَ الثاني. وهذا لا نجده في الماضي.

أما الأمانة: ففي الحرب العالمية الأولى لم تتردد العديد من الدول أن تستولي على الذهب الذي أودعته الدول الأخرى عندها أمانة. هناك مشهد عجيب في الدنيا، فلا تزال بعض الدول تُطلِق دعاوى عريضة بأنها حاملة لواء التحضّر والحرية من ناحية، ومن ناحية أخرى تذهب إلى البلاد الأخرى وتستأجر منطقة من مناطقها لعدد من السنين، ثم تستولي عليها تدريجيًا ولا تريد أن تردها لصاحبها. ومثاله في الهند جزيرة البرار، إذ استأجرها الإنجليز من حاكم "حيدر آباد دكن" لمائة سنة، ورغم انقضاء ١٢٥ سنة على ذلك فإنهم لا يريدون أن يردّوها لصاحبها، وعندما طالبهم الحاكم الحالي "نظام" قالوا له: إما أن تأخذ جزيرة البرار وتترك عرشك، أو تبقى على عرشك وتتخلى عن هذه الدعوى. والغريق يتعلق بقشة، فآثر الحاكم السكوتَ. وفي الحرب العالمية الأولى قدّم حاكم "حيدر آباد" خدماتٍ حربية جليلة للإنجليز، فقالوا له تقديرًا لخدماته: نردّ لك "البرار"، ولكن عليك أن تعطينا مقابل ذلك تعهُّدًا أنك تخوّل الحكومة الإنجليزية إدارتها إلى الأبد، ونمنحك ميزة زائدة وهي أن ولي عهدك سوف يسمى من الآن: أمير البرار.

يا لها من سخرية! فأمير حيدرآباد إذا سُمي أميرَها فلا ينال العزّ، وإذا سمي "أميرَ البرار" فينال العزّ. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

ومن أمثلة استيلائهم على أراضي الآخرين شتى الموانئ الصينية، وكذلك بلاد مصر والعراق والشام وفلسطين. عندما تمرّدَ أهل العراق والشام وفلسطين على الحكم التركي من أجل الإنجليز، وَعَدُوهم في الاتفاقية أنهم سوف يمنحونهم الاستقلال بعد الحرب، ولكنهم عندما يذكرون لهم اسم الاستقلال الآن يقولون لهم: إنكم مستقلون أحرار. لسنا هنا إلا لخدمتكم، فلا تظنوا بسبب وجودنا هنا أنكم لستم أحرارا ومستقلّين.

وهناك عشرات البلاد الأخرى التي ذهب إليها هؤلاء مؤقتًا، ثم استولوا عليها. هناك نزاع مماثل في إيران في هذه الأيام، لقد أعلنوا من قبل أنهم سيخرجون من إيران بعد انتهاء الحرب بستة أشهر، لكن روسيا تفكّر الآن أن تستولي على آبار النفط الإيرانية وتحث الناسَ على التمرد على الحكومة الإيرانية، ولذلك نسمع كل يوم أخبار التمرد في تلك المناطق، وتشيع الجرائد الروسية أن إيران تصبّ على أهلها ظلمًا عظيما وتسحق حريتهم بقسوة. وهذا يعني أن روسيا ستعلن بعد فترة أنها تستولي على هذه المنطقة الإيرانية وتتحمل هذا العبء الذي يقصم ظهرها، ليس لمنافع ذاتية، بل بدافع إنساني.

وهذا هو المصير الذي ينتظر بلغاريا ورومانيا.

وهذا يعني أن العيب الذي كان سبب خزي للأفراد من قبل، أصبح الآن مدعاة فخر عند هذه الدول.

أما العفّة: فلم يعُدْ لها أي معنى اليوم. في الماضي كان غير العفيف يمارس نشاطه في الخفاء، أما اليوم فيمارسه علنًا. لقد أصبح اقتناء العشيقات ظاهرة شائعة إذ يمارسها كبار رجال الحكومة والفلاسفة علنًا. هناك زعيم لبلد كبير يدّعي أنه حامل لواء الدفاع عن حقوق عامة الناس، وهو يعيش مع امرأة منذ عشر سنوات أو أكثر، ويقول: إنني لا أستطيع الزواج بدافع خدمة الوطن. ولكن الاحتفاظ بتلك الصديقة لا يشكل له أي عائق في خدمة وطنه!!

عندما هلك هتلر عُلم أنه كان عنده أيضا صديقة، وقد ولدتْ له ولدين، وتزوّجَها قبل موته بأيامٍ لكي يرثه أولاده (The New Encyclopaedia Britanica V. 29 P. 1021: Wars) . ما المتعة في الاحتفاظ بصديقة يا ترى؟ لماذا لا يتزوجون؟

وكان عند موسوليني عشيقة، وعندما توفيَ أثنتْ عليه زوجتُه، فقيل لها: إنه كان يحتفظ بعشيقة، فأجابت: هذه الغُول ألقتْ غشاوةً على عقل هذا الإنسان الشريف، ونِعْمَ ما فعله الناس بها.

إنهم يعيبون المومسة التي تمارس الدعارة علنًا، لكنها إذا باعت عفّتَها في الملاهي والفنادق صارت امرأة شريفة عندهم ولا يرون في ذلك أي عيب.

هناك ملِكٌ معروف شهير عَشِقَ امرأةً متزوجة، فكانت تزور الملِك كثيرا، وكان الناس على علم بذلك، وكانت تشترك في مآدب يحضرها كبير القُسس، ومع ذلك لم يعترض على هذا الوضع. ولكن لما أراد الملك أن يتزوجها بعد أن طلّقها زوجها، أثار القسس ضجة قائلين إن هذه إساءة كبيرة للدين.

هذه هي عفة الناس اليوم، والتي لا يمكن أن يستوعبها الذين خلوا من قبل والذين كانوا يؤمنون بالحقائق القديمة.

أما العدل والإنصاف: فلم يعُدْ لهما معنى اليوم. لقد جعل الناس ثلاثة أرباع سكّان المعمورة عبيدا. إن أمريكا التي تدّعي اليوم أنها حاملة لواء الحرية، كان أهلها الأصليون الهنودَ الحمر، ولكن لم يبق منهم إلا بضعة آلاف الآن. أما أستراليا فقد قتلوا سكانها القدامى، حتى انقرضوا ولم يبق منهم إلا قليل جدا يعيشون في ذل وهوان بلا حامٍ ولا مدافع. والأفارقة الذين يموتون اليوم جوعًا وفاقة، قد أُعطيتْ أراضيهم للأثرياء الإنجليز بحيث يملك كلٌّ منهم مئاتِ آلاف الهكتارات. والبيضُ في جنوب إفريقيا بعد أن استولوا على أراضي الأفارقة وعقاراتهم يعيشون هناك سادةً متجبرين وينتفعون من مناجم تلك البلاد أيضا، ومع ذلك يقولون إننا لم نقدّم هذه التضحية الكبيرة بخروجنا من بلادنا إلا من أجل تحضير العالم وتهذيبه.

أما الهند فإن وضعها الآن أخذ يتحسن كثيرا، وبدأ الناس يتنفسون بحرية ويسعون من أجل استقلال بلادهم بتقديم تضحيات جسيمة، أما في الماضي فكان

الإنجليزي الأبيض يقتل الهنديّ دوسًا بالأقدام، وكانت المحكمة تقول: لقد مات هذا الهندي لأن طحاله تمزّقَ. ولكن ما كان هنالك مَن يسأل: مَن أجاز لهذا الأبيض أن يمزّق طحال هذا الهندي؟ ولماذا يموت الهندي بتمزّق الطحال دائمًا؟ ولماذا لا يضرب الأبيض إلا الهندي ذي الطحال الكبير. لكن الحمد لله أن الوضع قد تحسن كثيرا، وأخذت الهند تسرع الخطى نحو الحرية، وقد أصبحت هذه الأحداث قصة تُروى.

أما التجارة: فلا تزال الشعوب القوية تضغط على الشعوب الضعيفة من أجل ازدهار تجارتها. إنهم يخدعون الضعفاء بطرق شتى، فحينًا باسم صرف العُملة، وحينًا بقولهم لهم إنما مصلحتكم في عدم الاعتناء بالصناعة والحرفة بل عليكم بالزراعة، وحينًا بمنعهم من صناعة سفن لهم، وحينًا بتقديم دعم غير شرعي لأهل قبيلتهم، وحينا بتشكيل شركات تجارية كبرى تحتكر التجارة، وهكذا يقتلون العدل والإنصاف بشتى الأساليب وعلى كل المستويات.

أما حالة العلم فقد تغيرت تماما ولم يبق من العلم القديم شيء. فقد تغيرت الفلسفة كليًّا. أما العلوم فتغيرت تسعين بالمائة، أما التاريخ فكان أساسه في الماضي على الرواية، أما اليوم فأساسه الجرائد واليوميات والرسائل، بينما توجهوا من أجل التاريخ القديم إلى الآثار القديمة والاثنولوجيا والجيولوجيا.

أما علم الفَلك فتغير كليًّا، فالشمس الآن ثابتة والأرض تدور حولها. واكتشفوا أنه ليس هنالك نظام شمسي واحد، بل هناك ملايين النظم الشمسية. كانوا يقولون من قبل إن سعة الكون ملايين الملايين من الأميال، أما الآن فيقولون إن سعته ستة وثلاثون ألف سنة ضوئية، وهذا يعني أن سعة الكون ٣٦ ألف مضروبا في ٣٦٠* في ٢٤ في ٦٠ في ٦٠ في ١٨٦ ألف. ولو جلس الإنسان من الصباح إلى المساء لإحصاء هذه الأرقام لم يستطعه.

أما علم الطب فتطوّرَ تطورًا مذهلا، فالأمور التي لم تكن تخطر بالبال من قبل قد أصبحت اليوم عادية جدا. لا شك أن العمليات الجراحية كانت تتم في الماضي،

* هكذا ورد في الأصل، ولعله سهو والصحيح: ٣٦٥. (المترجم)

ولكنها كانت بحكم الشاذّ النادر، وكان الناس يسمعون عنها في ذكر أبقراط وغيره من الأطباء. أما اليوم فيوجد في كل بلد وكل مدينة جرّاحون يشقّون البطون ثم يخيطونها، ويعالجون بالعمليات الجراحية الكلى والآذان والعيون والحلق وغيرها من الأعضاء. بل قد تطورت الجراحة في الحرب العالمية الأخيرة إلى حد مدهش حيث قاموا بعمليات جراحية للقلب، فكانوا ينظفونه ويعيدونه في مكانه. لقد اخترعوا أجهزة تساعد المرضى الذين قلوبهم لا تنبض أو ضعيفة جدا، وهكذا مدَّدوا في حياتهم. لقد وضعوا في هذه الأجهزة مرضى القلب الذين ما كانوا ليعيشوا ساعة أو ساعتين، فبقوا فيها شهورًا وسنوات حتى صارت قلوبهم تنبض، وفي هذه الأثناء عمل القانون الطبيعي عمله، فشفوا من مرضهم كلية.

إذن، فقد قفزت الدنيا في تطورها قفزات سريعة، فصارت الكتب القديمة قصةً تروى، إلا الكتب الدينية.

أما الاقتصاد، فقد تغيّرَ تمامًا. في الماضي كانت التجارة في العالم تجري بحسب ما يسمى المقايضة (barter system)، حيث كان الناس يأخذون البضائع من مكان إلى آخر، ويبيعونها مقابل بضائع أخرى كانوا بحاجة إليها، ثم يأخذونها إلى بلد ثالث، ثم يأخذون من البلد الثالث ما يحتاجونه، وهكذا كانوا يستبدلون بضاعة مكان بضاعة، وكانت حاجات الجميع تُسَدّ، وما كانت البلاد تضعف ولا تفقر، لأن ما كان يؤخذ منها تعطى مثله في صورة بضاعة أخرى. أما الآن فقد قُضيَ على هذا النظام، وأصبح التركيز على نظام البنوك، وكل تجارة تتم بالصكوك البنكية، والنتيجة أن الدول الفقيرة تزداد فقرًا وتنهار. كما قُضِيَ على تجارة الأفراد تقريبًا، إذ تكونت شركات تدير المعاملات التجارية، ولو تدبرتم لرأيتم أن كل التجارات الكبيرة قد احتكرتها شركات لم يكن يعرفها أحد من قبل.

ثم فوق الشركات هناك ما يسمى نظام اتحاد الشركات (trust system)، حيث تُعقد معاهدة بين تجار كبار والشركات الكبيرة في بلد واحد، فتجتمع عشر شركات أو أكثر، فيأخذ أصحابها تجارة البلاد كلها في قبضتهم، إذ يتعهدون أنهم لن يبيعوا بضائع معينة إلا بثمن محدد، ولن يتنافسوا فيما بينهم، والنتيجة أن الناس

يضطرون لشراء تلك البضائع بذلك السعر مهما كان غاليا، لأنهم حيثما ذهبوا وجدوا لها سعرا واحدا.

أما الآن فقد تطوروا أكثر من ذلك، فشكّلوا ما يسمى بالإنجليزية (cartel system)، حيث يتعاهد تجار كبار أو شركات من مختلف البلاد ببيع بضائع معينة بسعر محدد، وهكذا يتحكمون في تجارات كل البلدان، ويقبضون الثمن الذي يريدونه. وهذا هو النظام الذي يؤدي إلى الحروب في النهاية، لأن هؤلاء التجار يشترون كل الغلال من بعض البلدان، فتصاب تجارة بلاد كثيرة أخرى بالكساد، فيضطرون للقتال.

فهذا هو الزلزال الذي أصاب العالَم اليوم بما لا نجد في الماضي نظيرًا لجزء واحد من مئات أجزائه. أفلا يشابه هذا الزلزالُ القيامةَ حيث أرجف الأرضَ المادية من ناحية، وسكّانَها من ناحية أخرى؟ إلى هذا الزلزال يشير الله تعالى هنا ويقول: عندما يغرق العالَم في الكفر ويصبح الدين ضعيفًا لا نصير ولا معين، سوف ينقذ الله العالم من الكفر بواسطةِ بيّنة، أي رسولٍ من الله، أو نائب لرسول الله ﷺ. علمًا أن لفظ ﴿إذا﴾ هنا ظرفٌ لمحذوف، وتقدير الجملة هو: "ويكون كذا ثانيةً إذا زُلزلت الأرضُ زلزالها".. بمعنى أننا نجّينا أهلَ الكتاب والمشركين من الكفر مرةً حين بعثْنا رسولنا بصحف مطهرة حيث قلنا: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللهِ﴾، ولكن المقدر أن رسولنا هذا سوف ينجي الناس من الكفر ثانيةً في زمن يسوده الضلال والفساد والدمار وحين تُزلزَلُ الأرضُ وأهلُها زلزالاً هائلا.

قال المفسرون: ﴿يومئذ﴾ بدلٌ مِن ﴿إذا﴾ والعامل فيهما قوله ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، والمراد أن الأرض تُحدِّث أخبارها حين تُزلزَلُ الأرض زلزالَها (فتح البيان). لكني أرى أن ﴿تُحدِّث﴾ عاملٌ لـــ﴿يومئذ﴾، وهي جملة مستأنفة أي جديدة، حيث بين الله تعالى أنه سيحدُث عندئذ أمرٌ آخر بأن الأرض سوف تحدّث أخبارها. أما قوله تعالى ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، فقد جاء استمرارا للموضوع السابق، أي أن حادثًا مماثلا سيقع مرة أخرى.

وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

أَثْقَالَهَا: الثَقَل: متاعُ المسافر وحَشْمُه؛ وكلُّ شيء نفيس مصون؛ ومنه: إني تاركٌ فيكم الثَقَلين: القرآنَ وعترتي، وجمعُه الأثقال. وأصلُ الثَّقَل ما يكون مع الإنسان مما يُثقِله. والأثقال: كنوزُ الأرض؛ موتاها؛ الأحمال الثقيلة. (الأقرب)

التفسير: نظرًا إلى مفاهيم كلمة ﴿أثقالها﴾ فستعني هذه الآية ما يلي:

أولاً: أن الأرض – أي أهلها – يطرُدون الملوك والأثرياء الحاكمين الذين كانوا عبئًا على الفقراء لا يُحتمل. إن أكبر ثقل في الدنيا هو الحكومة الظالمة غير الشرعية، ونرى أن الله تعالى قد خلق في هذا العصر من الأسباب ما وضع عن الناس هذا الثقل، فالعالم كله يقضي على المَلَكية أو يقلّص صلاحيات الملوك، وهو أمر لم يسبق له نظير. في الماضي لم يكن هناك بلد واحد ليس فيه ملك –إلا بعض القبائل الصغيرة التي كان زعماؤها رؤساء لا ملوك– أما اليوم فقد قضوا على الملكية من معظم بلدان العالم. هذه الحقيقة تنكشف عليك جلية إذا ألقيت نظرة عابرة على العالم من الشرق إلى الغرب. خُذوا مثلا القارة الأمريكية، فكان الملك الفرنسي يحكم شمالها: أعني كندا، بينما كان الملك البرتغالي يحكم جنوبها، والملك الإسباني يحكم باقي القارة الأمريكية، أما اليوم فقد اختفت المَلَكية من هذه البلدان كلها. أما أوروبا فتجد الملوكَ في إنجلترا والسويد والنرويج والدنمارك وبلجيكا، بينما غابت المَلَكية في فرنسا وإسبانيا والبرتغال وألمانيا وإيطاليا والمجر وروسيا واليونان ويوغوسلافيا وبلغاريا ورومانيا، أما تشيكوسلوفاكيا فكانت تحت قبضة الألمان، أما الآن فقد سقطتْ في قبضة القوى المتحالفة، لكن لا وجود للملكية فيها الآن. أما في قارة آسيا، فكان في تركيا ملكٌ ولا يوجد اليوم، وفي إيران ملك، وفي العراق ملك، أما الشام وفلسطين ولبنان، فكانت تحت حكم الملوك ولكنها قد خرجت من قبضتهم. أما أفغانستان ففيها ملكٌ بالاسم، ونفس الحال في الهند، فالملكية هنا بالاسم. أما الصين وكوريا فقد كان في كل منهما ملك، ولكن لا

وجود له الآن. أما اليابان فهناك ملكٌ لكن الحلفاء يريدون القضاء عليه. هذا يعني أن الملوك قد قُضي عليهم في ثلاثة أرباع المعمورة، ومَن بقي منهم فبالاسم بدون صلاحيات كما في إنجلترا.

إذن فالمراد من قوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أن الأرض تطرد الملوك وعِلْيَةَ القوم، وهكذا سوف يُرفَع عن الفقراء ذلك الثقل الذي فاق احتمالهم.

وثانيا: والمفهوم الثاني لهذه الآية أن الناس سوف يتحررون من سلطة رجالات الدين من مشايخ وقسيسين وباندات. لا شك أن ثِقل المشايخ ليس كثقل الحكومات الظالمة، لكن الناس يعظّمون فتاواهم ويقدّمون تضحيات عظيمة من أجلهم أحيانًا، وهذا الثقل أيضًا قد زال عن الناس إلى حدّ كبير. والحال نفسه بالنسبة إلى الباندات الهندوس، فلم يعد بوسعهم أن يضغطوا على أتباعهم لأداء القرابين والكفّارات والاغتسال بنهر "جانجا". كما زال ضغط القسس على أتباعهم، مع أنهم كانوا أقوى سلطة من المشايخ والباندات، إذ كان لهم سلطة وحُكم في كل مكان، فكانوا يُعاقبون الناس بالسجن والقتل أيضًا. لقد مارسوا حكمهم على عامة الناس بما لا مثيل له، أما الآن فقد غابت هذه الأمور كلها.

ثالثا: والمعنى الثالث للأثقال هي الأثقال الظاهرة في الأرض، فالمراد من الآية أن الأرض تُخرج ما فيها من معادن وغيرها من الثروات والخيرات. وبالفعل نرى أن الإنسان يستخرج من بطن الأرض بلايين الأطنان من زيت الكيروسين مثلاً. في الماضي لم يكن الناس يتصورون وجوده في بطن الأرض، أما اليوم فينتفع به الناس في كل قرية ومدينة حيث تضاء به المصابيح في كل مكان لا توجد فيه كهرباء. في الماضي كان الناس يشعلون السراج بزيت الخردل، أما اليوم فقد أصبح استعماله متروكًا، وأخذ مكانه الكيروسين. كما يُستخدم أيضا في المصانع.

ثم يُستخرج من الأرض البترول الذي يُستعمل وقودا في السيارات. ويُستخرج منها الفحم الحجري الذي تعمل به القطارات والماكينات والمصانع الضخمة. ثم يُستخرج منها أنواع المعادن الثمينة مثل اليورانيوم والبلوتونيوم والراديوم وغيرها. كل هذه الأشياء كانت مخبأة في بطن الأرض، ولم يكن الناس يعلمون ذلك،

ولكنها استُخرجت منها فتنفع الناس في مجالات شتى. فالجميع يرى أن الأرض قد ألقت أثقالها.

رابعا: ومن أثقال الأرض الآثارُ القديمة التي كانت خفية في بطنها كأمانةً، وهي تُستخرج اليوم. لقد اكتشفوا مدنا كبيرة كانت بعضها مدفونة في الأرض على عمق ثمانين بل تسعين قدمًا، لقد ظلّت مختفية فيها منذ آلاف السنين، ولم يكن الناس يعرفون أنهم يمشون على مدن مدفونة، فاليوم يكتشفها علماء الآثار ويطلعون على الحضارات القديمة ويعرضونها للناس. وبرؤية آثار هذه المدن يعرفون نوعية أواني الناس قبل عشرة آلاف سنة وثيابهم وأشكال بيوتهم ونظام طرقهم وأنواع مراكبهم وعرباتهم وأسرَّتهم وأثاث بيوتهم. ثم إنهم يستخرجون عظام الموتى والجثث المحنطة من بطن الأرض ويحتفظون بها في المتاحف ليراها الناس. فالأرض قد شعرتْ بثقل الأشياء المدفونة في بطنها فأخرجتها كلها وقالت خذوا أماناتكم هذه.

خامسا: ولو اعتبرنا الأرض بمعنى أهلها فالمراد من قوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أن الناس سيعلنون على الملأ أفكار الإباحية واللادينية والحرية المطلقة، مما كانوا يخفونه من قبل، مخافة أن تُنـــزع ألسنتهم من حلوقهم لو أعلنوه، فيكتبون الآن كتبًا ويديرون نقاشات معلنين أن هذه هي الأفكار السليمة وأن علينا أن نغيّر تفكيرنا السابق. فقبل فترة قرأتُ أمرًا غريبا عن روسيا السوفياتية. فكما أن المسيحية تدعي اليوم –رغم اعتقادها بالثالوث– أنها هي التي علّمتْ التوحيد الكامل، كذلك تفعل روسيا، حيث تروّج لأمرٍ باسم آخر. فقد كتبتْ جريدة هناك أن الناس يعترضون علينا بأن ظاهرة الزواج قليلة في روسيا، وليكن واضحًا لهم أولا: أن حكومتنا لا يمكن أن تلام على ذلك إذ لا تمنع أحدا من الزواج، وثانيًا: لو أمعنا النظر في الأمر الواقع لوجدنا أن الفاحشة لا تنتشر باقتناء العشيقات بقدر ما تنتشر نتيجة الزواج!

بقراءة هذه الفكرة يصاب الإنسان بالذهول. يا ترى، إذا لم يكن اقتناء العشيقات فاحشةً فما هو مفهوم الفاحشة عندهم؟

وهذا هو حال كثير من البلدان الأخرى، حيث ينشرون على الملأ أفكار الإباحية والحرية المطلقة واللادينية. وهكذا ظهر للناس ما كان خفيا في صدورهم.

سادسا: والمفهوم السادس لقوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ هو الإشارة إلى كثرة الاكتشافات العلمية ولا سيما أسرار الأرض الخفية. وقد ظهرت هذه العلامة بجلاء في هذا العصر، ففي كلّ سنة تُخترع مخترعات جديدة وتُكتشف اكتشافات جديدة باطراد.

الواقع أن العلوم (Science) اسمٌ للنتائج الكيماوية لتأثير الأرض، وهذه النتائج الكيماوية هي الأثقال التي كانت خفية في الأرض، وقد أُخرجت من بطنها من خلال المخترعات والاكتشافات العلمية الكثيرة. فلا تمرّ سنة إلا ويظهر صدق قوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٤﴾

التفسير: أي أن الأرض تُخرج أثقالها حتى يقول الإنسان مذهولا: ما لهذه الأرض؟ وما هذه الأسرار والأشياء التي كانت خفية، وقد ألقتها الأرض الآن؟

والمعنى الثاني أن لا يكون المراد هنا كل إنسان بل الإنسان الكامل، الذي يقول برؤية عُرْيِ الناس وإلحادهم: ما لهذه الدنيا؟ لماذا ابتعدت عن الله تعالى هذا البعد؟

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٥﴾

التفسير: هذه الآية قد تكون موضوعا جديدا، وقد تكون شرحًا لقوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾. ولو اعتبرناها موضوعا جديدا فمعناه عندي: كان الناس لا يعلمون عن خَلْق الأرض وماهيتها إلا علمًا مجملاً وناقصًا، ولكن في العصر الأخير سيتطور علم الجيولوجيا، فمن خلال نوعية تربة الأرض ومن أشعّتها وموجاتها وغيرها ينكشف على الناس الكثيرُ عن خلق الأرض. وكأن ﴿أَخْبَارَهَا﴾

يعني أن الأرض ستحدّث أمورا كثيرة عن حقيقتها وكيفية خلقها. لقد قال الله تعالى ذلك لأن علم الجيولوجيا يتوقف -إلى حد كبير- على معرفة ماهية تربة الأرض وطبقاتها وألوانها، وليس لأنهم يجمعون هذه المعلومات عن الأرض بوسائل أخرى، إذ يخبر الجيولوجيون بفحص الصخور والتربة أن الأرض قد مرّت بكذا وكذا من التغيرات، ويخبرون برؤية حفريات مختلفة على مختلف طبقات الأرض عن التغيرات المختلفة التي حصلت بالأرض. كذلك يخبرون بلون التراب ورائحته بوجود المعادن فيه. إنهم يصعدون على الجبال ويفحصون الأحجار ويشمّون رائحة التربة، فيخبرون أن في هذه المنطقة كذا وكذا من المعادن والعناصر. وكذلك يكتشفون من خلال الموجات الكهربائية نوعية المعادن وعمقها، فيعرفون ما هو المعدن الموجود هناك، أهو ذهب أم نحاس، وكم عمقه. وهكذا تُحَدِّثُ الأرض أَخْبَارَهَا، وتتكلم بعد أن كانت صمّاء. يمرّ الناس عليها فيظنونها صامتة، لكن عندما يمر عليها الجيولوجيون يسمعون قولها لهم: إن في بطني النفط وهو على عمق ثمانين مترًا مثلا، أو في بطني الذهب أو الفحم أو اليورانيوم أو البلوتونيوم وغيرها وهو على عمق كذا وكذا.

لقد قلت من قبل إن أحد معاني قوله تعالى ﴿وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ هو أن الناس سوف يتحدثون علنًا عن أفكارهم السيئة، ونظرًا إلى هذا المفهوم سيعني قوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أنه في ذلك العصر لن تطفو على السطح أفكار أهل الأرض المكبوتة فحسب، بل يقومون بهذا العمل برغبة عارمة ويجدون المتعة في كشف تلك العيوب للناس ونشرها بينهم. وبالفعل قد بدأت تصدر في أوروبا وأمريكا وآسيا جرائد تسمى (society gossip) – أي صحف الفضائح والقيل والقال – وهي توزع في العالم بكثرة ويطالعها الناس بمتعة. ينفق أصحابها مئات الآلاف لكي يطّلعوا على أسرار الشخصيات الكبيرة من الرجال والنساء، ثم ينشرونها في جرائدهم على نطاق واسع. كما يكتب بعض الناس بأنفسهم عن مشاعرهم الشهوانية بالتفصيل، ثم تهربًا من طائلة القانون يكتبون على كتبهم أنها

خاصة بالأطباء والفلاسفة وليس للعامة، حتى يظنوا أنها كُتبت لأغراض علمية محضة، لا إشباعًا لأهواء النفس.

لقد قرأت بنفسي بعض هذه الكتب، فمثلاً: حلف اثنا عشر طبيبا في أمريكا وتعاهدوا قائلين: إن علم الجنس علمٌ خفيّ، ويقع الناس في أنواع الخداع والخطأ إذ ليس عندهم معرفة سليمة تفصيلية به، فلنذكرْ تجاربنا الجنسية كلها بلا حياء. فألّفوا اثني عشر كتابًا ذكروا فيها مشاعرهم الجنسية بكلمات عارية كقول بعضهم: عندما نمارس أنا وزوجتي الجنس هكذا تكون مشاعرنا، وهذه هي الحركات التي نقوم بها، وهكذا نعبر عن حبّنا، وما إلى ذلك. وقد قرأت أحد هذه الكتب الاثني عشر.

وهناك حديث ينطبق في رأيي على هذا الوضع المعاصر، وقد أخرجه أحمد والترمذي والنسائي، وفيما يلي رواية الترمذي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، تَقُولُ: عَمِلَ يَوْمَ كَذَا كَذَا وَكَذَا. فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا. (الترمذي، أبواب التفسير، ومسند أحمد: مسند أبي هريرة ﷺ)

فحيث إن المحدثين لم يكونوا على علم بما يحدث اليوم فطبّقوا هذا الحديث على يوم القيامة، لكني أراه ينطبق على هذا العصر الذي تصدر فيه جرائد تنشر عيوب الناس كلها، فيقرؤها الآخرون بشوق ونهم. هناك جريدة لندنية تُطبع منها ألف نسخة فيما سمعتُ، يشتريها الناس في الصباح المبكر خفيةً ويقرأونها بمتعة، سواء عليةُ القوم أو عامة الناس، وليس في هذه الجريدة إلا أن زوجة فلان وابنة فلان فعلتْ كذا وكذا، حتى تُلمّح الجريدة إلى أفراد العائلة الملكية أيضا بأن فلانا منها وُجد في سيارة مغلقة أمام باب فلان، ونتساءل: لماذا ذهب هنالك، ولماذا وجدتْ سيارته أمام ذلك البيت؟

فهذا الحديث النبوي يشير إلى هذه الأمور في رأيي، لكن المفسرين قد طبقوه خطأ على يوم القيامة، مع أن القرآن الكريم يقول إن الأرض ستُحدِّث أخبارها

وليس أخبارَ القيامة. لقد ورد عن يوم القيامة أن الأيدي والأرجل ستشهد عندها ضد الإنسان (يس:٦٦)، وليس أن الأرض ستحدّث عندها. غير أنه قد ورد في الأحاديث بوضوح أن الأرض سوف تتكلّم في زمن المسيح الموعود عليه السلام، إذ جاء أن الحجر سيقول في زمن المسيح الموعود عليه السلام: يا نبي الله، إن هناك كافرا مختفيا ورائي♦ (البخاري: كتاب الجهاد، باب قتال اليهود). مما يدل على أن هذه الآية تتحدث عن العصر الحاضر، حيث أخبر الله تعالى أن الناس سوف ينشرون مساوئهم في الجرائد والكتب واليوميات وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا. فالأمور التي كان الناس يخفونها سيستمتع أهل هذا العصر بذكرها ولن يبقى عندهم شيء اسمه الحياء والخجل. وكما قلت إن أصحاب الجرائد يبثّون عملاءهم للتجسس على كبار الرجال والنساء لمعرفة أسرارهم الشخصية، ثم ينشرونها ويكسبون الملايين ببيعها. وبعض أصحاب الجرائد المتدنية يلجأون إلى ابتزاز الناس لهذا الغرض. كذلك تكتب نساء بعض العائلات الشريفة العريقة ذات النفوذ يومياتهن فيذكرن فيها تصرفاتهم المشينة بلا خجل ولا حياء، ثم تطبع هذه اليوميات بآلاف النسخ ليطالعها الآخرون.

إذنْ، فقد قامت القيامة ووقعت الزلزلة في العصر الحاضر بما لا تجد له نظيرا في التاريخ، وهكذا تحققت نبوءة القرآن: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ تحققا رائعا.

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

أوحى: أوحى إليه إيحاءً: بَعَثَه. وأوحى إليه بكذا: ألهمَه به. ووَحَى إليه يَحِي وَحْيًا: أشار؛ أرسلَ إليه رسولاً. ووَحَى الله في قلبه كذا: ألهمَه. ووَحَى إلى فلان

♦ نص الحديث: "أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا الْيَهُودَ، حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ وَرَاءَهُ الْيَهُودِيُّ: يَا مُسْلِمُ، هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ." (المترجم)

الكلامَ: كلّمه خفيًّا. وفي "الأساس": "وحيْتُ إليه وأوحيتُ: إذا كلّمته بما تخفيه عن غيره. وفي "المصباح": وبعض العرب يقول: وحيتُ إليه ووحيتُ له وأوحيتُ إليه وله. (الأقرب)

وورد في "مجمع بحار الأنوار": ويقع الوحيُ على الكتاب والإشارة والرسالة والإلهام والكلام الخفيّ. وحيتُ إليه الكلامَ وأوحيتُ. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ وحيُ إعلامٍ لا إلهامٍ لقوله تعالى ﴿إِنّا رادُّوه إِلَيْك﴾".

يعني أن ما أوحيَ إلى أم موسى عليه السلام كان وحيَ كلماتٍ لا وحيَ إلقاءِ أمرٍ في القلب. وقد قال ذلك لأن الإلهام في اصطلاح العلماء القدامى يعني إلقاءَ أمرٍ في القلب، ولذا يفرِّقون بين الوحي والإلهام، مع أن هذا الفرق وَهْمٌ منهم، لا سند له في الشرع.

ثم يقول صاحب بحار الأنوار: "و﴿أوحيتُ إلى الحواريين﴾: أمرتُهم. و﴿أوحى لها﴾: أي ألهمَها. ﴿فأوحى إليهم﴾: أومأَ -أي ما ورد في القرآن عن زكريا عليه السلام فأوحى إليهم فمعناه: أومأَ إليهم - وقيل: كتب بيده في الأرض." (مجمع بحار الأنوار: وحى)

لقد اتضح من هنا أن من معاني الوحي: بَعْث أحدٍ لأمرٍ، وإلقاء شيء في القلب، وإفهام أحدٍ بإشارة، وإرسال أحدٍ برسالة، وكلامُ المرء لصاحبه بما يخفيه عن غيره، والأمرُ بشيء.

التفسير: لقد ورد فعل الوحي في القرآن الكريم في ٦٥ مرة، إضافةً إلى هذه الآية، وفي كل مرة ذُكر معه حرف (إلى). وهناك خمسة أماكن أخرى ورد فيها فعلُ الوحي مجهولاً وبدون حرف (إلى).. أعني بدون ذكر الموحى إليه، لذا فلا يمكن التأسيس على مثل هذه المواضع. فحيث إن الوحي ورد في القرآن ٦٥ مرة مع حرف (إلى)، كما ورد في الحديث مع حرف (إلى)، لا مع اللام، فلا بد من التسليم أن قوله تعالى ﴿أوحى لها﴾ لا يعني أنه أوحى إلى الأرض، بل اللام هنا بمعنى (في)، والمعنى أنه أوحى في حق الأرض، أما الموحى إليه فلم يذكر هنا. لو

كان المراد هنا أنه تعالى أنزل الوحي إلى الأرض لقال بحسب أسلوب القرآن والحديث: (أوحى إليها) بدلاً مِن (أوحى لها). فمع أن الموحى إليه غير مذكور هنا، إلا أن الجميع يدرك بسهولة أن الموحى إليه هو الرسول ﷺ، بدليل أن وحي القرآن نزل عليه ﷺ، فقوله تعالى ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ يعني: "بأن الله أوحى إلى محمد لها".. والمراد: لا تستغربوا خبر هذه التغيرات العظيمة، فإنها واقعة حتمًا لأن الله تعالى قد أنبأ عن وقوعها في القرآن. وفي هذه الحالة يُعتبر قول الله هذا موجهًا إلى مَن يأتي بعد نـــزول القرآن الكريم، حيث بين الله تعالى هنا أنه سبق وأخبر قائلا: ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ -أي أن أهلها سيكشفون مساوئهم علنًا- لذا فقد صار هذا الأمر من قدره المبرم، لأن الله تعالى إذا أخبر في وحيه عن وقوع شيء معتبرًا إياه علامةً على صدق مأمور له، فيتحقق حتمًا ولا يلغى أبدًا. هناك كثير من جرائم الإنسان التي إذا فكر فيها لام نفسه وكَفَّ عنها، ولكن الله يخبر هنا أن أهل ذلك الزمن لن يرتدعوا عن منكراتهم، ونقول ذلك لأننا قد أحطنا بمصيرهم علمًا. لو أنهم كانوا سيمتنعون عن جرائمهم هذه لأخبرناكم أيضا، ولكننا نخبركم أن الأجيال القادمة هذه قد عقدت العزم على هذه الأعمال الشنيعة، فمهما عجبتم من هذه الأخبار وقلتم في استغراب كيف يمكن أن يأتوا هذه المنكرات فهي خلاف الفطرة ولا بد أن فطرتهم سوف تمنعهم من ارتكابها ولن تَدَعهم ينجرفوا في سيل هذه المعاصي، إلا أننا نخبر أن هذا سيحدث حتمًا، لأن ﴿رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾.. أي أن هذا الخبر قد جاء في وحي القرآن الكريم، والقرآن أنزله عالم الغيب، وإنه لم ينـــزل فيه من أخبار الزمن الأخير إلا ما هو واقع حتمًا. لو أن هؤلاء القوم كانوا سيرتدعون عن هذه المعاصي لَذَكَر ذلك أيضا و لم يسكت عنه في وحيه.

وهنا ينشأ سؤال: لماذا قال الله تعالى هنا ﴿أوحى لها﴾ خلاف التعبير الشائع: أوحى إلى فلان؟

لقد حاول المفسرون الإجابة على ذلك فقال بعضهم: كان بعض العرب يستعمل اللام مكان (إلى) فيقولون: وحيت له وأوحيت له بدلاً من وحيت إليه وأوحيت إليه. (فتح القدير، وروح المعاني)

لكننا لا نقبل بهذا التأويل، إذ قد ورد لفظ الوحي في القرآن الكريم ٦٥ مرة وفي كل مرة قد ورد مقرونًا بحرف (إلى)، فلا داعي للقول أن اللام في قوله تعالى ﴿أَوْحَى لَهَا﴾ جاء مكان (إلى).

وأدرك البعض بما في هذا الجواب من خطأ فقال: المراد: أن الله تعالى أوحى إلى الملائكة لها، أي أن الموحى إليه محذوف هنا.

هذ التأويل لا بأس به، غير أني أرى أن الموحى إليه هو الرسول ﷺ وليس الملائكة، والمعنى أن الله تعالى قد سبق أن أخبر رسوله بوحيه عن هذه الأحداث المستقبلية، لذا فلا بد من وقوعها، ولا يمكن أن يحول دونها حائل. لقد أخبر الله في وحيه بوقوع هذه العلامات عند بعثة المسيح الموعود عليه السلام- التي هي في الحقيقة بعثة ثانية لرسولنا الكريم ﷺ- فإذا كان زوال بعض الأمور الأخرى ممكنا، إلا أن إلغاء هذه العلامة محال، لأن ما يجعله الله علامة على معرفة مأموره فهو لا يلغى أبدًا. هذا المبدأ قد بيّنه المسيح الموعود عليه السلام في كتبه وقال: لا شك أن إلغاء الأخبار الإنذارية ممكن، أما الأخبار الإنذارية التي يجعلها الله علامة على بعثة مأمور من عنده فلا تلغى أبدا، بل تقع حتمًا مثل الأنباء الإلهية التبشيرية.

وهناك معنى آخر لقوله تعالى ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ قد ذكره المسيح الموعود عليه السلام، وقد سمعته من لسانه، وهو: "إن ربك أوحى إلى إمام الزمان"، والمراد أن هذه الأنباء قد أوحاها الله إلى الرسول ﷺ المرةَ الأولى عند نزول القرآن، كما سيوحيها ثانيةً إلى إمام الزمان الأخير عند اقتراب وقوعها. وكان حضرته عليه السلام يعني من قوله هذا أن هذه الآية إشارةٌ أيضًا إلى ما تلقّاه من الله تعالى من أخبار الزلازل الكثيرة في هذا العصر. ذلك أنه كان من الممكن أن يقول الناس: لماذا لا تقع هذه الزلازل من قبل وإنما تقع في زمن المسيح الموعود عليه السلام، فأجاب الله أنها ستقع عند ظهوره لأنها تكون علامةً على صدقه، وعند زمن اقتراب هذه العلامات عند ظهور المسيح الموعود عليه السلام سيوحي الله إليه ثانيةً ويخبره: لقد حان الزمن الذي سبق أن أخبرنا عنه في القرآن الكريم، وهكذا فإن تكرار الوحي عن وقوع هذه الأخبار سيكون دليلاً على اقتراب زمن هذه الزلازل من ناحية، ومن ناحية أخرى

يدل على المأمور الذي تقع الزلازل من أجله. فبعد هذا الوحي المتكرر ستبدأ سلسلة من الزلازل لكي تكون دليلا على صدق إمام الزمان هذا، ولتفكّر الدنيا أن هذا المدعي إذا لم يكن من عند الله تعالى، فكيف أدلى بهذه الأنباء عن هذا الزمن المظلم في وقتٍ لم يكن ليخطر ببال أحد وقوع زلازل عظيمة تغيِّر وجه العالم، ثم تحققت أنباؤه حرفيا أيضا.

باختصار، إن الموحى إليه في هذه الآية اثنان: رسول الله ﷺ والمسيح الموعود عليه السلام، أما رسول الله ﷺ من حيث إن الوحي عن هذه الأخبار قد نزل عليه أول مرة، وأما المسيح الموعود عليه السلام فمن حيث إن هذا الوحي عنها قد نزل عليه ثانية. إن النبي ﷺ هو المصداق الأول لهذه الآية القائلة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ لأن الوحي الأول عن هذه الأخبار نزل عليه ﷺ ولأن جميع الآيات التي ستظهر إلى يوم القيامة إنما تظهر تدليلاً على صدقه ﷺ، ولأن كل من يقيمه الله تعالى لهداية الناس لا بد أن يكون خادما له ﷺ، والمسيح الموعود عليه السلام هو المصداق الثاني لهذه الآية لأن الله تعالى قد أجّل وقوع هذه الزلزلة العظيمة إلى أن أنـــزل وحيه ثانيةً على حضرته عليه السلام مؤكدًا ما قاله من قبل لرسوله ﷺ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ حيث أنبأ سبحانه وتعالى أن محمدا ﷺ سيظهر في زمن آخر من خلال مثيله، لينجي الناس من الكفر والشرك مرة أخرى. فقوله تعالى ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ إشارة إلى الوحيين: إنه إشارة إلى الوحي الأول لأنه هو الهادي، وإشارةٌ إلى الوحي الثاني لأنه يجلّي ثانيةً – على وجه النيابة – نفسَ التجلي الذي ظهر من قبل عن طريق الرسول ﷺ.

أما السؤال: ما هو الوحي؟ فقد سبق أن سجلنا ما ورد في المعاجم من المعنى اللغوي للوحي، أما الآن فأودّ إلقاء الضوء على المعنى الشرعي للوحي.

نجد في المفردات للراغب – وهو قاموس للقرآن الكريم – قولاً إجماليًا عن أفكار العلماء السابقين عن الوحي. فقد ورد فيه:

"أصل الوحي: الإشارة السريعة."

ذلك أن الإشارة نوعان: سريعة وبطيئة. والحق أن الإشارة السريعة فيها عنصر الإخفاء، وبالفعل نجد المرء يشير أثناء كلامه بعينه أو إصبعه أو برأسه إلى من يريد لكي يعلم هو مراده دون الآخرين. فالفارق بين الإشارة السريعة والعادية هو أنك تريد بالإشارة العادية أن تفهِّم صاحبَك قصدَك، سواء فهمه الآخرون أم لم يفهموا، أما السريعة فتقصد بها إعلامَ صاحبك دون الآخرين.

لقد شرح المسيح الموعود عليه السلام أيضا الوحيَ في كتابه "حقيقة الوحي" وغيره من الكتب، وأخبر بناءً على تجربته الشخصية أن كلام الله ينـــزل بسرعة هائلة (ملفوظات: المجلد ٤ ص ٥١٣-٥١٤). وهذا هو الأمر الذي بيّنه القرآن الكريم في قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾(القيامة:١٧-١٨). كان الوحي ينـــزل على رسول الله ﷺ بسرعة، فكان يردده في عجلة لكي يضبط ألفاظه جيدًا، فطمأنَه الله تعالى أن لا داعي لذلك، لأن وحينا هذا وحيُ شرع، ووحيُ الشرع لا يُنسى أبدا، لأنه إذا أُنسِيَ صار الوحي المتلوّ ناقصًا. لا شك أن لهذه الآية معاني أخرى أيضا، غير أن هذا أحد معانيها.

فالقرآن يؤكد أن الوحي ينـــزل بسرعة، والمسيح الموعود عليه السلام أخبر بناءً على خبرته أن الوحي ينـــزل بشوكة وعظمة وسرعة. والمعنى اللغوي للوحي -أعني الإشارة السريعة- أيضا يؤكد كيفية نـــزول الوحي.

ثم يقول صاحب المفردات: "وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوتٍ مجرّد عن التركيب وبإشارةٍ ببعض الجوارح، وبالكتابة."

علمًا أن صاحب المفردات لا يتحدث هنا عن وحي الله تعالى، إنما يبين المعنى اللغوي للوحي. ثم يقول:

"وقد حُمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. فقد قيل: رَمَزَ، وقيل: اعتبارٌ، وقيل كَتَبَ."

والاعتبار يعني لغةً: الاستنباط العقلي من قول أو فعل، والمراد هنا أنهم استنتجوا مما كان فيه زكريا عليه السلام من خشوع وخضوع وتضرع وبكاء وتوجُّه إلى الله تعالى، أنه يأمرهم بتسبيح الله وتحميده.

ثم قال صاحب المفردات: "وعلى هذه الوجوه قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، وقوله ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾، فذلك الوسواس المشار إليه بقوله ﴿مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاس﴾، وبقوله ﷺ: إن للشيطان لَمّةَ الشرّ. ويقال للكلمة الإلهية التي تُلقَى إلى أنبيائه وأوليائه وحي."

لقد حلّ صاحب المفردات هنا قضية هامة لم تزل سبب عثرة للمسلمين. فقد رأيتُ أننا عندما نقول للناس إن الله تعالى قد أنزل وحيه إلى المسيح الموعود عليه السلام فإنهم يثيرون ضجة ويقولون هذا قول باطل، إذ لا ينـــزل أي وحي بعد رسول الله ﷺ. في حين نجد صاحب المفردات يقول هنا: "ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى لأنبيائه وأوليائه وحي". أما نحن فنؤمن أن المسيح الموعود عليه السلام نبي ورسول، ولذلك لا مناص لنا من اعتبار إلهاماته وحيًا، أما صاحب المفردات فيعتبر الكلام الذي ينـــزل على الأولياء وحيًا أيضا. وهذا هو الحق والصدق، فإن كل كلام ينـــزل من الله تعالى على النبي أو الولي وحيٌ حتمًا. لقد قلَّت هذه النقاشات الآن، ولكن عندما كنتُ طفلا صغيرا كانت المعارضة على أشدها وكان المعارضون يُفتون فتاوى كبيرة ضد حضرته بسبب إطلاقه لفظَ الوحي على إلهاماته، وكانوا ينشرون إعلانات ضخمة قائلين إن الميرزا كافر وملحد –والعياذ بالله– لأنه يدعي نزول الوحي الإلهي عليه. بينما نجد الإمام "الراغب" يقول صراحةً إن الكلام الذي ينـــزل على أنبياء الله وأوليائه يسمى وحيًا بدون أي تفريق وتمييز.

ثم يقول الامام الراغب: "وذلك أضربٌ حسبَما دلّ عليه قوله ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا — إلى قوله – بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء﴾، وذلك إما برسولٍ مُشاهَدٍ تُرى ذاتُه ويُسمَع كلامه كتبليغ جبريل عليه السلام للنبي في صورة معينة".

ورد في الحديث أنه لما نزل أول وحي على النبي ﷺ في غار حراء رأى جبريلَ عليه السلام فكلّمه، ثم فتر عنه الوحي بعض الوقت، ثم نزل عليه جبريل ثانية وفي هذه المرة لم يره النبي ﷺ في غار حراء، بل رآه جالسًا على كرسي بين السماء والأرض. ويظهر من البخاري وغيره من كتب الحديث أن جبريل ظهر للنبي ﷺ في بعض المرات وكلّمه مشافهةً وجهًا لوجه كما يكلّم صديق صديقه. فثبت أن جبريل عليه السلام كان يظهر للنبي ﷺ في كل مرة في صورة ما، لذا لم يقل صاحب المفردات هنا في "صورته المعينة"، بل قال "في صورة معينة"، إذ ليس لجبريل شكل معيّن؛ والحديث أيضًا يؤكد أنه كان يظهر للنبي ﷺ في صور مختلفة، إذ ظهر ﷺ في غار حراء في صورة شاب، وبعد فترة من الوحي الأول ظهر له ﷺ في شكل مَهيب حتى خافه النبي ﷺ إذ كانت صورته هذه تملأ ما بين السماء والأرض، أما في المدينة المنورة فظهر له ﷺ جبريل في صورة الصحابي دحية الكلبي (البخاري: كتاب بدء الوحي، وأُسد الغابة: دحية بن خليفة الكلبي). فظهور جبريل للنبي ﷺ في صور مختلفة دليل على أنه ليس له صورة معيَّنة. إنه ملاك ولا فرق بينه وبين غيره من الملائكة من هذه الناحية، لكنه عندما يظهر على عبد من عباد الله تعالى فيتمثل في شكل بحسب نوعية الوحي الذي ينـــزل به. فقد ظهر على النبي ﷺ في غار حراء على صورة شاب لأنها بداية الوحي، وأراد الله تعالى استمالة قلبه ﷺ وإظهار حبه له مؤكدًا له أن لا داعي للخوف والقلق، فقد اختاره لقربه وسوف يُنـــزِل عليه في المستقبل أفضالا عظيمة. ثم بعد انقطاع الوحي لفترة تمثلَ جبريل له ﷺ في صورة مهيبة، والحكمة في ذلك أنه كان قد انقضى على بداية الوحي ستة أشهر، وكان النبي ﷺ قد بدأ تبليغ كلام الله تعالى لأهل مكة ولو على مستوى فردي، وكانت بوادر معارضة أهل مكة وتكذيبهم قد أخذت في الظهور، فأراه الله تعالى جبريلَ في صورة مهيبة، ولكن ليس تخويفًا له ﷺ بل إيذانًا ببداية نـــزول الوحي الذي فيه أخبار هلاك المعارضين ودمارهم. أما الحكمة في ظهور جبريل على النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي في المدينة المنورة فهي أنه لو جاءه عليه السلام في صورة شكل أجنبي لظن الصحابة أن شخصًا من الخارج جاءه ﷺ وكلمه ورحل، ولكن هذه الشبهة

ما كانت لتساورهم في حالة ظهور جبريل في شخص دحية الكلبي، لأنه كان جارا لهم، ولو انتابتهم شبهة، كان بإمكانهم أن يسألوه: هل كنتَ في مجلس النبي ﷺ أمسِ أم لا؟ فإذا قال لا، أيقنوا أن ما قاله النبي ﷺ هو الحق، وأن جبريل هو من جاءه ﷺ في صورة "دحية الكلبي". فأنزل الله جبريل على صورة دحية حتى إذا أخبر النبي ﷺ صحابته أن جبريل هو الذي جاءني أمامكم لم تساورهم الشكوك، بل أيقنوا أن ما يقوله النبي ﷺ هو الحق، لأن دحية موجود في مكان آخر ولا يمكن أن يظهر شخص بجسده في مكانين مختلفين في وقت واحد. فمثلا البروفيسور "بشارة الرحمن" يعمل أستاذًا في كليتنا، ومعنى اسمه: خبر سار من الله الذي يرحم الإنسان رحمة عظيمة مرة بعد أخرى. فلو رأى أحدُكم البروفيسورَ في حالة اليقظة ولكنه أحس في قلبه أنه رآه في حالة الكشف، فلكي يطمئن قلبه سيذهب إلى البروفيسور إذا كان يعرفه معرفة شخصية ويقول له: هل قابلتَني أمس في وقت كذا ومكان كذا، فلو قال له: كلا، كنتُ عندها في بيتي أيقن صاحب الكشف أن ما شعر به قلبه هو كشفٌ أراه الله تعالى، إذ لو كان مشهدًا ماديا لعرف البروفيسور أنه قد قابله في مكان كذا ووقت كذا. كذلك لو ظهر جبريل في صورة شخص أجنبي وليس بصورة دحية الكلبي وصافحه وكلّمه ورجع، ثم قال النبي ﷺ لأصحابه إن جبريل جاءني وكلّمني، فقد يشك البعض ويقول ربما كان شخصا آخر وظنه النبي ﷺ جبريل. لا شك أنهم كانوا يؤمنون بكل ما يقول الرسول ﷺ منشرحي الصدر، لكن علينا أن نعلم أن اليقين نوعان: نوع مقرون بالأدلة المادية كلها، ونوع أساسه الإيمان فقط، فلو أن الرسول ﷺ قال للصحابة عن شخص أجنبي: هذا جبريل الذي أتاني، لصدَّقوه إذ كانوا يوقنون بكل ما يقول لهم، ولكن مجيء جبريل في صورة دحية الكلبي، وإمكانية اطمئنانهم بسؤال دحية الكلبي ما إذا كان قد حضر مجلسَه ﷺ أم لا، وإمكانية إنكاره ذلك، كان سيولّد فيهم يقينًا ما كان ليتيسر نتيجة إيمانهم السابق. فهذا الأمر كان دليلا إضافيا على أن حواسهم تصدّق ما قال لهم الرسول ﷺ. فكأنهم كانوا سيصدقون الرسول ﷺ لأنه يقول لهم هكذا،

وأيضا لأن حواسهم تشهد على ما يقول، وأيضا لأن دحية يؤكد ما يقول النبي ﷺ.

باختصار، لقد ظهر جبريل على النبي في هذه المناسبات الثلاث في صور ثلاث مختلفة لأغراض مختلفة.

عندنا يعترض البعض على الإسلام قائلا: تزعمون أن الله يكلّم عبادّه، فهل له لسان يكلّم به؟ نقول في الرد: ليس لله تعالى لسان، بل إنه بقدرته يخلق الكلام بدون لسان. وهذا هو حال جبريل فهو ملاك يتمثل بأشكال مختلفة بحسب الظرف والحاجة، فأحيانًا في صورة أُمٍ أو بنتٍ أو زوجة أو صورة رجل أو حمامة أو أي حيوان آخر. واختلاف الصور التي يتمثل بها يشير إلى نوعية الكلام الذي ينـــزله الله تعالى بواسطته لنا، فيما إذا كان من أجل أحبابنا أم أعدائنا. وكأن كلام الله ينـــزل بطريقين؛ بكلمات يسمعها الإنسان من لسان جبريل، وبصورة جبريل نفسه. فرؤية النبي ﷺ إياه في صورة مهيبة جالسًا على كرسي ما بين السماء والأرض، هي بمثابة إعلان رباني بأن الكلام الذي سينـــزل الآن على محمد سوف ينفَّذ به قضاء الله في الأرض كلها، لأن مصير العالم كله منوط بهذا الكلام، فلن يقبل الله الآن من الناس عملاً إلا إذا كان مطابقا لهذا الكلام، وأما إذا كان خلافه فسوف يرفضه. وحينما أراد الله تعالى استمالة قلب النبي ﷺ وإظهار حبه له، فظهر جبريل عليه ﷺ في صورة شاب جميل. وعندما أراد الله أن يؤكد للصحابة أن مَن يرونه هو جبريل نفسه ظهر جبريل في صورة صحابي، لكي يكون بإمكانهم أن يعرفوا بأنفسهم أنَّ مَن كان يكلّم النبيَّ هو جبريل لا دحية الكلبي.

إذًا، فجبريل ينـــزل في صورة معينة دائما، وليس في صورته الحقيقية.

ثم يقول الراغب: "وإما بسماعِ كلام مِن غير معايَنةٍ كسماع موسى كلامَ الله، وإما بإلقاءٍ في الرُّوع كما ذكر عليه الصلاة والسلام أن روح القدس نفَث في رُوعي".

أي لم تنـــزل على النبي ﷺ عندها كلمات معينة، وإلا لقال إن جبريل قال لي كذا وكذا. مما يعني أن مِن طرق الوحي أن أمرًا يُلقى في قلب الإنسان من عند الله تعالى.

لكن هذا لا يعني أن نسمي أفكار القلب إلهامًا ووحيًا، إنما المراد أنه ينكشف على الإنسان أن جبريل، أو ملاكًا آخر، أو الله نفسه، قد ألقى في قلبه شيئًا من الخارج، وأن هذا الأمر لم يتولد في قلبه من الداخل.

وتابعَ الراغب: "وإما بإلهامٍ نحو ﴿وأَوْحَيْنا إلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيه﴾، وإما بتسخيرٍ نحو قوله تعالى ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ﴾."

المراد من قوله أن الوحي إلى النحل يكون بتسخير أنها لا تتلقى أي كلام بالعربية أو الأردية أو الإنجليزية، ولا ترى أي مشهد، ولا يُرسَل لها جبريل، بل قد غرس الله تعالى في فطرتها وغيرِها من المخلوقات ما تقوم به مجبرةً كما يريده الله تعالى. فمثلا قد سخر الله الشمس لتجري إلى جهة معينة، وسخر الأرض لتدور حول الشمس، وسخر بعض النباتات لتحمل زهورا وبعضها لتحمل ثمارًا، وهكذا. وكأن الأمر الذي أُودِعَ فطرةَ كلِّ مخلوقٍ كغزيرة هو وحي تسخير.

ويتابع صاحب المفردات: "أو بمنام، كما قال عليه الصلاة والسلام: انقطع الوحي وبقيت المبشرات؛ رؤيا المؤمن. فالإلهام والتسخير والمنام دلّ عليه قولُه ﴿إلاّ وَحْيًا﴾، وسماعُ الكلام معاينةً دلَّ عليه قولُه ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، وتبليغُ جبريل في صورة معينة دلّ عليه قولُه ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ﴾."

وأود أن أوضح هنا أن صاحب المفردات قد ارتكب هنا لدى شرح الوحي الإلهي بعض الأخطاء –بسبب البعد الزمني بينه وبين الرسول ﷺ – التي لا بد من الانتباه إليها في بحث الوحي.

فأول وأكبر خطأ وقع فيه أنه خلط هنا موضوعين، إذ أراد أن يخبرنا عن أقسام الوحي الذي ينـــزل على البشر، لكنه خلط معه الوحي الذي ينـــزل على النحل. إنه لم يكن يبحث هنا المعاني اللغوية المختلفة للوحي، وإنما كان يبحث أنواع الوحي النازل على البشر، لكنه قد أقحم هنا الوحي النازل على النحل. فقد بدأ

كلامَه بقوله: "ويقال للكلمة الإلهية التي تُلقى إلى أنبيائه وأوليائه وحيٌ، وذلك أضربٌ حسبما دلّ عليه قولُه ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا﴾ إلى قوله ﴿بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾..."

والظاهر أن الحديث هنا عن الوحي الذي ينـــزل على البشر، لكن صاحب المفردات يقول في شرح هذه الآية: "وإما بتسخير نحو قوله تعالى ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ﴾." فما دام يتحدث هنا عن الوحي النازل على البشر، فكيف يجوز له أن يذكر هنا الوحي الذي ينـــزل على غير البشر. فأولُ خطأ أنه خلط الأمرين. لا شك أنه صحيح –لغةً– أن من أنواع الوحي وحي التسخير كالوحي إلى النحل، ولكن قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ جاء في معرض الحديث عن وحي البشر وليس غير البشر، لكن الراغب ذكر وحي النحل عند شرح هذه الآية، فغلب المعنى اللغوي على ذهنه ونسي أنْ لا مجال لذكر الوحي التسخيري هنا لأن الآية تتحدث عن الوحي الذي ينـــزل على البشر وليس على غير البشر.

والخطأ الثاني هو أنه قال عند شرح الآية المذكورة آنفا: "ذلك إما برسولٍ مشاهَدٍ تُرى ذاتُه ويُسمَع كلامه، وإما بسماعِ كلامٍ مِن غيرِ معايَنةٍ كسماعِ موسى كلامَ الله، وإما بإلقاءٍ في الرُّوع كما ذكَر عليه الصلاة والسلام أن روح القدس نفَث في رُوعي، وإما بإلهامٍ نحو ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيه﴾."

فما دام قد ذكَر النوعَ الذي ينـــزل فيه جبريل، والنوعَ الذي يُسمع فيه صوت، والنوعَ الذي يُلقى فيه أمرٌ في القلب، فما معنى ذكر الإلهام بعد ذلك منفصلا حتى يقول إن مثال الإلهام الوحيُ الذي نزل على أم موسى عليه السلام؟ الواضح أن الكلام الذي ينـــزل عن طريق جبريل أو عن طريق صوتٍ من الله هو إلهام، وهذا ما تلقّتْه أُم موسى، ولكن صاحب المفردات يبدأ كلامه هنا بقوله: "وإمّا"، ليشير إلى أنه يبين هنا نوعًا آخر من الوحي وهو الإلهام، ومثاله قول الله تعالى لأم موسى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، مع أن هذا النوع قد ذُكر سلفًا، وهو ليس نوعًا جديدا إضافيًّا حتى يبدأه بقوله: "وإما". كان عليه أن يقول إن الوحي والإلهام شيئان مختلفان، والفرق بين الوحي والإلهام كذا وكذا، ولذلك أذكر الإلهام منفصلا، لكنه لم يفرّق بينهما،

ومع ذلك استخدم كلمة (إما) وكأنه نوع إضافي غير مذكور من قبل، مع أن هذا ليس بصحيح.

ولو قيل أن الراغب قد ذكَر الإلهام منفصلا لأنه يعني مِن الإلهام ما يُلقَى في القلب، ومِن الوحي ما ينـــزل في صورة كلمات، فهذا قول باطل أيضا، لأنه سبق أن قال "إما بإلقاءٍ بالرُوع كما ذكَر ﷺ أن روح القدس نفَث في روعي". فما دام الإلقاء في الروع قد ذُكر من قبل فثبت أنه لم يقصد بقوله "وإما بإلهامٍ نحو ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾" الإلقاءَ في القلب، لأن هذا مذكور من قبل.

وعندي أن جملة: "وإما بإلهام نحو ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾" قد صدرتْ من صاحب المفردات ناسيًا.

وما قاله صاحبُ "مجمع البحار" أيضا يشير إلى أن صاحب المفردات قد وقع في خطأ هنا، حيث كتب: "وأوحينا إلى أم موسى وحيُ إعلامٍ لا إلهامٍ، لقوله تعالى ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾. فصاحب "مجمع البحار" يقول هنا إن الإلهام إلقاءُ أمرٍ في القلب من دون كلمات، بينما قال الله تعالى لأم موسى بكلمات واضحة: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾، فنـــزول كلمات معينة إليها دليل على أنه إعلامٌ وليس بإلهام.

ومن كمال اللغة العربية أن المعاني تتغير بتغير بسيط في الكلمات، فمثلا إذا أردتَ إخبارَ شخص بشيء فهذا إعلام، أما إذا أردت إخبارَ أناس كثيرين بشيء فهذا إعلان، فلأن حرف الميم يأتي قبل النون في الهجاء، فالإعلام يتعلق بإخبارِ شخصٍ، والإعلان يتعلق بإخبارِ أشخاص كثر.

على أية حال، لقد فنّد صاحب "مجمع البحار" هنا قول صاحب المفردات، فبيّن أن ما تلقَّته أمُّ موسى لم يكن وحيَ إلهام، بل وحيَ إعلام، إذ تلقّتْ كلمات محددة، بينما لا يكون هناك كلمات محددة في الإلهام الذي معناه إلقاء في الروع. ولذلك أقول إن صاحب المفردات قد ذكر لفظ الإلهام هنا ناسيًا. ومن الممكن أنه أراد قول شيء آخر، لكن حصل هنا تصحيف فصارت العبارة مبهمة، فلم نفهم قصده.

فالإمام الراغب قد أخطأ عندي لدى شرح الوحي إذ قال: "فالإلهام والتسخير والمنام دل عليه قولُه ﴿إلا وَحْيًا﴾، وأما قوله ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ فمعناه أن يكلّم

الله أحدًا بدون أن يُرى، وأما ﴿يُرْسِلَ رَسولا﴾ فيعني ألا يكلّم الله بنفسه، بل يرسل كلامه مع جبريل.

فقوله هذا ليس صحيحا، إذ لم يكن جبريل يُرى عند كل وحي قرآني، كما لم يكن كلامُ موسى عليه السلام كلُه من قبيل ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، ثم إن تعريفه هذا لقوله تعالى ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ ينطبق على كل أنواع الوحي إذ لا يُرى الله في أي نوع من الوحي، لأنه تعالى وراء الوراء.

والغريب أن الراغب يقول من ناحية إن المنام (الرؤيا) يندرج تحت قوله تعالى ﴿أو وحيًا﴾، ومن ناحية أخرى ينقل حديث الرسول ﷺ القائل: انقطع الوحي وبقيت المبشرات، أي رؤيا المؤمن. لو كان قوله تعالى ﴿أو وحيًا﴾ يعني المنام، لقال النبي ﷺ: انقطع الكلام من وراء حجاب إلا الوحي. فثبت أن الشرح الذي قام به صاحب المفردات هنا لا يستحق القبول.

الواقع أن العلماء قد وقعوا في سوء فهم كبير عند فهم كلمة الإلهام، ولذلك يعرّفون الإلهام بأنه الإلقاء في القلب، مع أن الوحي والإلهام شيء واحد دونما فرق. الحق أن الصوفية اخترعوا اصطلاح الإلهام لما ينـــزل عليهم من وحي الله تعالى، كي لا يقع الناس في فتنة، وإلا فلا فرق بين الوحي والإلهام قط. لقد استعمل المسيح الموعود عليه السلام لفظ الإلهام مرارًا، لكنه قد أوضح أيضا أنني أُسمّي هذا الكلام إلهامًا من منظور اصطلاح الصوفية، وإلا فإني لا أعتبر الإلهام والوحي شيئين مختلفين. إن ما يسميه الناس إلهامًا هو الوحي نفسه. (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية المجلد ١ ص ٢٤٣)

فالحق أن الإلهام اصطلاح اخترعه الصوفية لوحيهم المشتمل على الكلمات، وإلا فإن القرآن الكريم استعمل كلمة الوحي في كل مكان. هناك استعمال واحد للفظ الإلهام في القرآن، لكنه ليس بمعنى الوحي بل هو بمعنى الميلان الطبعي، وهو قوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس:٩).. أي أن الله تعالى ألهمَ فطرة الإنسان معرفة الخير والشر. علمًا أن هناك فرقًا بين التسخير والميلان الطبعي، لأن الميلان اختياري، أما التسخير فليس باختياري، بل يبقى الشيء المسخر مائلا إلى

جهة واحدة أُريد ميلانه إليها، ويكون مجبرا على ذلك لا يحيد عنه شيئا. فمثلا من المحال أن تترك النحل صنْعَ العسل، لكن الإنسان مخيَّرٌ في أن يختار سبيل التقوى أو سبيل الفجور.

فثبت من هنا أن المعنى الذي فسّر به صاحب المفردات لفظَ الإلهام لم يستعمله القرآن بذلك المعنى، كما لم يَرِدْ الإلهام في هذه الآية بالمعنى الذي يريده الصوفية. الواقع أن الصوفية اخترعوا هذا الاصطلاح فيما بعد لما يتلقونه من وحي لفظي من الله تعالى، لكن المسيح الموعود عليه السلام قد أوضح أن الكلام الإلهي الذي ينـــزل عليَّ هو الوحي نفسه، ولكن لما كان الناس يطلقون عليه الإلهامَ فأنا أيضا اسميه إلهامًا تبعًا لاصطلاحهم، وإلا فالوحي والإلهام مترادفان لا فرق بينهما. (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية المجلد ١ ص ٢٤٤)

وليكنْ معلوما أيضًا أن الإسلام حين يقول إن الله تعالى يُنـــزل وحيه مع ملائكته أحيانًا، فليس معنى ذلك أن الملائكة تَنـــزل مع الوحي المشار إليه في قوله تعالى ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾، لكنها لا تنـــزل مع الوحي المباشر الذي يتم بلا واسطة. كلا، بل الواقع أن الملائكة تنـــزل مع كل كلام ينـــزل إلى الأنبياء، وليس هناك من وحيٍ لا تنـــزل معه الملائكة. لكن هناك سوء فهم عند الناس عن نزول جبريل، إذ يفهمون من ذلك أنه يأتي عند كل وحي ويقول للنبي: لقد أمرني الله تعالى بتبليغ هذا الأمر لك. هذا الفهم غير سليم. إن نـــزول الملائكة إنما يعني أن كل وحي ينـــزل في حراستها، وليس أنها تأتي عند كل وحي وتقول للنبي: لقد أَمَرنا الله بإبلاغك إياه. وإن وحي المسيح الموعود عليه السلام يؤكد هذا الأمر. فمثلا قد ورد في وحي له صراحةً: "جاءَني آيل"، (التذكرة، ص ٥٥٩). علمًا أن آيل هو جبريل، ولكن لم يذكر في إلهاماته الأخرى صراحةً أن جبريل جاءه، مما يدل بوضوح أن مسألة نزول الملائكة ليست كما يفهمها الناس. فمثلا قد ورد فيما أُوحيَ للمسيح الموعود عليه السلام: "إني مع الأفواج آتيك بغتةً"، وهذا لا يعني أن الملائكة نزلت مع هذا الوحي وقالت له: إن الله أمرنا بإنزال هذا الوحي عليك! كلا، لا يحدث هكذا، بل الواقع أن العبد يشعر عندئذ أن كلامًا من الله تعالى

ينـــزل عليه مباشرة، غير أنه يتّضح من القرآن أن الملائكة تنـــزل حتمًا مع هذا الكلام لحمايته. ولكنها لا تنـــزل لحراسة وحي الأناس العاديين، إذ لا ضيْر لو حصل فساد في وحيهم، أما وحي الأنبياء ومَن دونهم ممن يقيمهم الله لإصلاح الدنيا، فلا بد من حراسته من خلال نـــزول الملائكة، لأن ذلك الوحي حجة على الناس.

باختصار، ليس المراد من نـــزول الملائكة مع الوحي أنه لما نزل -مثلا- قول الله تعالى على رسوله: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٢-٣)، جاء معه جبريل وقال له ﷺ: لقد أمرني الله تعالى بتبليغ هذا الكلام إليك. هذا الأمر مذكور بصدد بعض السور فقط منها سورة البينة، كما كان جبريل يأتي النبي ﷺ في كل رمضان ليدارس معه ما نزل من القرآن (مسند أحمد: مسند عبد الله بن العباس، والبخاري: كتاب بدء الوحي)، ولكن ليس ثابتًا من القرآن أو الحديث أن جبريل كان ينـــزل عند كل وحي قرآني ويقول للنبي ﷺ إن الله قد أمرني بتبليغه إياك. غير أنه مما لا شك فيه أن كل وحي للنبي ﷺ يكون محروسًا من قبل جبريل حتمًا.

الواقع أن الله تعالى بقدرته يخلُق صوتًا عند إنزال الوحي، ويمكن للشيطان أن يتدخل في هذا الصوت، لذلك تنـــزل معه الملائكة حتمًا لحراسته، لكي تولّد في قلب العبد اليقينَ بصدق هذا الوحي. فمثلاً قد كتب المسيح الموعود عليه السلام بصدد يقينه بوحيه: حتى لو عُلِّقْتُ على الصليب فمن المحال أن أشكّ في أن الوحي الذي ينـــزل عليّ هو مِن نفس الإله الذي أوحى إلى آدم ونوح وموسى وعيسى، وفوق كل ذلك إلى محمد المصطفى ﷺ. (انجام آتهم، الخزائن الروحانية المجلد ١١ ص ٥٠-٥١)

والحق أن هذا اليقين لا يتولد في قلب الموحى إليه إلا بسبب حماية الملائكة للوحي، لكنها -كما قلتُ- لا تنـــزل مع وحي الناس العاديين، لذلك لا يتحلّون باليقين والثبات والاستقامة رغم نـــزول الوحي عليهم. يأتينا بعض الناس ويقولون نريد أن نبايعكم لأن الله أخبرنا بصدقكم، فيبكون ويبتهلون ويندمون على أعمالهم السابقة، ويعِدون وعودا كبيرة، ولكنهم يرتدّون بعد فترة. ففيما يتعلق بقولهم إن الوحي قد نزل عليهم حول صدق الأحمدية فهو حق وصدق، ولذلك جاءوا

ليبايعونا، ولكن لا ينـــزل مع وحيهم ملائكة، فلا توهب قلوبهم ذلك الثبات والاستقامة التي توهب لأنبياء الله وأوليائه، ولذلك لا يقدر هؤلاء على الصمود أمام الابتلاءات ويتعثرون. أما النبي فيوهب منذ أول وحيه ثباتًا غير عادي ويكون أول المؤمنين بوحيه، ولذلك يعلن كل نبي ﴿أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ و﴿أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، إذ كيف يولِّد اليقين بوحيه في قلوب الآخرين إذا لم يوقن هو بوحيه؟ فلأن النبي أولُ مَن يولَّد في قلبه اليقين بوحيه، ولذلك لا يشك -ولا للحظة واحدة- في صدق ما نزل عليه من الوحي، رغم معارضة كل الدنيا له، ورغم عدم تحقُّق بعض أنبائه الإنذارية لوجود شروط ظاهرة أو خفية فيها.

لن أنسى المشهد الذي رأيته عند حلول آخر يوم من المدة المضروبة لموت القسيس "آتهم" في نبوءة المسيح الموعود عليه السلام. أتذكر أن الأحمديين اجتمعوا في المكان الذي يوجد فيه اليوم دكّان الحكيم المولوي قطب الدين، وبدءوا يدْعون الله تعالى ببكاء وصراخ قائلين: ربِّ، حَقِّقْ هذه النبوءة. وكان بينهم أفغاني اسمه عبد العزيز، فكان يضرب رأسه بالجدار بشدة ويقول: رب لا تجعلْ شمسَ اليوم تغرب حتى تُهلِك "آتهم". وعندما علِم المسيح الموعود عليه السلام بذلك خرج من بيته وقال: ما بال الناس رفعوا عقيرتهم باكين صارخين؟ إذا ثبت كذبُ أحد بعدم تحقق النبوءة فهو أنا، فلماذا أصابهم الذعر والقلق؟

ولم يكن سبب ذلك إلا أنهم كانوا قد سمعوا هذا الوحي من لسان المسيح الموعود عليه السلام، ولم يتيسر لهم ذلك الثبات الذي يتيسر للموحى إليه بنـــزول الملائكة مع الوحي، أما المسيح الموعود عليه السلام فكان قلبه عامرًا بالثبات والاستقامة، وكان يدرك أن لا معنى لهذا البكاء والصراخ، لأن الله الذي أنزل عليه هذا الوحي هو المسؤول عن تحقيقه، وإذا لم يتحقق لشرط من الشروط فلا بأس أيضًا؛ إذ لن يحدث أي شيء إلا بحسب سنة الله المستمرة بصدد النبوءات الإنذارية، فلا داعي للقلق.

إذن، لا بد من نـــزول الملائكة مع الوحي الإلهي وإنْ نزل بلا واسطة، غير أنه من الخطأ الظن أن الملاك ينـــزل عند كل وحي ويقول: لقد أمرني الله تعالى بإنزاله

إليك. فهناك خمسة أو سبعة أمثلة فقط في الحديث قال فيها الرسول ﷺ في سياق نزول الوحي عليه: "أتاني جبريل"، أو نجد ذكر نزوله بمناسبة رمضان، إذ كان يأتي رسولَ الله ﷺ ليدارس معه القرآن، لكنه أمرٌ مختلف تمامًا؛ إذ لم يكن جبريل في هذه الحالة إلا مجرد سامع، وكان مجيئه ضروريا لأن من واجب الرسول ﷺ أن يحفظ كلّ كلمة من القرآن الكريم. لو أخطأ المرء في قراءته لصحّحه الآخرون، أما لو أخطأ الرسول ﷺ فكيف يصححه الناس، إذ يقولون لعل القرآن نزل هكذا، أو لعل الوحي السابق قد حصل فيه تغيير من الله تعالى. من أجل هذه الحكمة أمر الله تعالى جبريل أن يسمع قراءة الرسول ﷺ حتى إذا أخطأ صححه، فالأمر هنا مختلف تماما، فلا يمكن الاستدلال من نـــزول جبريل في رمضان على أن الملك ينـــزل مع كل وحي إلهي ويقول: لقد أمرني الله بتبليغه إليك. هذا يحصل في مناسبات قليلة، أما باقي الوحي فنـــزول الملائكة معه إنما يعني أن الله تعالى يُنـــزل وحيه في حراستها.

ثم بعد ذلك يقول الراغب في "المفردات": "وقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾، فذلك لمن يدّعي شيئا من أنواع ما ذكرناه من الوحي.. أيَّ نوع ادعاه مِن غير أن حصل له".

يذكر الراغب هنا أمرا لطيفا للغاية، حيث يبين أن للوحي مفاهيم عديدة – لُغويًا– وبعضُها لا علاقة له بوحي الله تعالى، مثل الإشارة أو الإيماءة، وبالتالي ينشأ السؤال: ما هو نوع الوحي الذي قال الله تعالى بشأنه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾؟ ثم يجيب عليه الراغب بنفسه بأن هذه الآية إشارةٌ إلى المدّعي الذي يدّعى بتلقِّي أيّ من هذه الأنواع للوحي التي ذكرتُها آنفا، أما إذا ادعى أحد تلقِّي وحي لا يندرج في هذه الأنواع فلا ينطبق عليه مفهوم هذه الآية.

وهذا أمر لطيف وبسبب عدم إدراكه قد وقع "البهائيون" في خدعة كبيرة. إنهم يخترعون من عندهم تعريفًا جديدا للوحي، ثم يقولون ما دام "البهاء" قد ادعى نـــزول الوحي عليه فلماذا لم ينـــزل عليه عذاب الله لو كان مفتريا عندكم؟

نقول في الرد عليهم إن العذاب إنما ينـــزل على من يدّعي نـــزول أحد أنواع الوحي المذكورة في القرآن الكريم، وليس أن يخترع أحد من عنده تعريفًا جديدا للوحي يتعارض مع القرآن والاسلام والدين، ثم يدّعي تلقّي الوحي ثم يصرخ: ما دمتُ ادعيت نزول الوحي عليّ فلماذا لا ينـــزل عليَّ عذاب الله؟ لا شك أن الله تعالى قد وعد بإنزال العذاب على المفتري المتقوِّل على الله تعالى، لكنه لا ينـــزل هذا العذاب إلا على من يدّعي تلقّي ذلك النوع من الوحي الذي نزل على الأنبياء السابقين، مما يشكّك في صدقهم. فإذا ادعى أحد تلقّي ذلك النوع من الوحي أي أن الله كلَّمه كما كلَّم الأنبياء السابقين من آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، وأن وحيه يماثل كمًّا وكيفًا وحي الأنبياء السابقين، فلا شك أنه لو كان كذابًا ألقى الناس في ابتلاء، ولا بد عندها أن يهلكه الله بالعذاب. ولكنه إذا كان يخترع من عنده تعريفا جديدا للوحي ثم يدعي أنه يتلقى هذا النوع من الوحي فلا يقع تحت طائلة الوعيد القرآني هذا. ومثاله البهائيون؛ إذ إن الوحي عندهم اسم لأفكار القلب. إنهم لا يدَّعون أن "بهاء الله" تلقّى وحيًا لفظيا، بل يروْن أن كل ما يخطر بقلب الإنسان من فكرة وخاطرة فهو وحي. وهذا هو حال "ميان غلام محمد*" من مدينة لاهور، إذ يعتبر أفكار قلبه وحيًا. فما الداعي أن يعاقب الله تعالى شخصا يدّعي أن كل ما يخطر بقلبه من أفكار هو وحي من الله؟ كلا. ذلك أن كل إنسان يدرك بسهولة أن هذا المدّعي مجنون. فالله تعالى لا يرى داعيًا لعقوبة مدّعٍ كذاب إلا إذا كان ادعاؤه يؤدي إلى التشكيك في رسالة محمد ﷺ أو موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام. ولا يشتبه أمر رسالتهم إلا إذا ادعى أحد أنه ينـــزل عليه نفس الوحي الذي كان ينـــزل عليهم. أما إذ لم يدَّعِ نـــزول هذا النوع من الوحي فلن يمثّل ادعاؤه خطرًا حقيقيًّا، وبالتالي ليس ضروريًا أن يقع تحت بطش الله تعالى.

فصاحب المفردات يقول هنا إن العذاب الذي وعد الله تعالى بإنزاله على المتقولين والمفترين عليه إنما ينـــزل على من يدعي على سبيل الافتراء نـــزولَ أحد أنواع الوحي المذكورة آنفا. فإذا ادعاه فلا بد أن يعذّبه الله. فمثلا لو قال: إن

* لقد ادعى أنه المصلح الموعود المذكور في نبوءة المسيح الموعود عليه السلام. (المترجم)

جبريل يكلّمني كما كان يكلّم محمدا رسول الله، أو قال هذه هي الكلمات المعينة التي نزلت عليّ من عند الله، أو قال إنني أتلقى أخبارا غيبية معينة من الله في مشهد تمثيلي كالمنام.. في حين أنه لم يتلقَّ أي شيء من هذه الأمور، فلا بد أن يقع مثل هذا المدعي تحت طائلة وعيد القرآن بشأن المفتري على الله تعالى. أما لو قال إن ما يخطر بقلبي من أفكار هو الوحي، فهذا ليس من أنواع الوحي المذكورة في القرآن في شيء. وحيث إن مثل هذا الادعاء لا تشتبه به نبوةُ أي نبي، ولا يمكن أن ينخدع به أي عاقل، فلا داعي أن يعذّب الله صاحب هذا الادعاء؛ لأن كل عاقل يدرك فورًا أنه مجنون أو شرير. أما إذا ادعى أحد أن جبريل ينـــزل عليه ويبلغه كلام الله، أو أن الله يُلقي في سمعه أو يُجري على لسانه كلماتٍ معينة من وحيه، أو أنه يتلقى أخبارا غيبية من الله تعالى في المنام، فلا بد أن يحل به عذاب الله. ولا شك أن هذا استدلال رائع من صاحب المفردات.

ثم يقول الراغب: "وقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، فهذا الوحي هو عامٌّ في جميع أنواعه. وذلك أن معرفةَ وحدانية الله تعالى ومعرفة وجوب عبادته ليست مقصورةً على الوحي المختصّ بأولي العزم من الرسل، بل يُعرَف ذلك بالعقل والإلهام، كما يُعرَف بالسمع. فإذًا، القصدُ من الآية تنبيهٌ أنه من المحال أن يكون رسولٌ لا يَعرِف وحدانيةَ الله ووجوبَ عبادته."

ويعني الراغب: أن لفظ الوحي في هذه الآية لا يعني وحيًا لفظيا، بل المراد منه ما أودع الله فطرةَ الأنبياء من معرفةِ وحدانيته، وبسبب هذه المعرفة الفطرية يعلَم كلُّ نبي أن عليه أن يعبد الله وحده. فالراغب يرى أن الوحي هنا ليس بمعناه المعروف المخصوص، بل المراد أن الله تعالى قد أودع في فطرة كل نبي أن عليه أن يعبد الله ولا يقترب من الشرك.

ولكني أرى أن هذا المعنى باطل. إذا كان الأنبياء في غنى عن أن يوحي الله إليهم وحيه الخاص حول وحدانيته، وكانت تكفيهم المعرفة الفطرية التي وهبهم الله إياها، فلماذا نزلتْ على النبي ﷺ عشرات الآيات التي تؤكد وحدانية الله تعالى؟ البديهي

أن النبي ﷺ لم يشرك قط، فقد ورد في الحديث أن بعض مشركي مكة قدّموا له طعامًا ذُكِرَ عليه اسم أصنامهم، فرفض أكله وأزاحه إلى زيد بن عمرو –وهو ابن عمّ عمر رضي الله عنه– وكان جالسًا بجنبه، ولكنه رفض أكله، وقال لقريش: نحن لا نأكل طعاما باسم الأصنام (أسد الغابة: زيد بن عمرو). مما يدلّ على أن النبي ﷺ كان يؤمن بوحدانية الله تعالى منذ البداية ويكره الشرك أشدّ الكراهية، ومع ذلك نجد القرآن قد تناول موضوع وحدانية الله تعالى، بل هو مليء بتأكيد وحدانية الله تعالى ويذكرها مرة بعد أخرى. فثبت أن قول صاحب المفردات ليس صحيحا. لا شك أن الله تعالى قد أودع فطرةَ الأنبياء ما ينفّرهم من الشرك والوثنية طبعًا، ومع ذلك لا يصحّ القول أن الله تعالى لا يرى حاجة لإنزال وحيه عليهم مؤكدًا لهم وحدانيته. إنهم يؤمنون بوحدانية الله بطبعهم ويكرهون الشرك ولا يجيزون السجود لغير الله تعالى، إلا أن الله ينـــزل عليهم وحيه مؤكدًا وحدانيته. وهناك عشرات الأمثلة على ذلك في القرآن الكريم.

ثم يقول الراغب: "وقوله تعالى ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾.. فذلك وحيٌ بوساطة عيسى عليه السلام".

أي أن الله تعالى لم يوحِ إلى كل حواريّ على حدة قائلا له مثلاً: قُمْ وانصرْ نبيَّنا، بل المراد أن الله تعالى أوحى ذلك إلى عيسى عليه السلام، فقام بتبليغ هذا الوحي إلى الحواريين. وهذا الرأي صحيح وهذا هو الواقع.

ثم يقول الراغب: "وقوله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾، فذلك وحيٌ إلى الأمم بوساطة الأنبياء".

يبدو أن صاحب المفردات قد قال هذا من دون النظر إلى سياق الآية، وإلا لم يقل ما قال. ويبدو أنه استنتج من كلمة ﴿إليهم﴾ أن المراد منها جميع الناس، وهذا خطأ، فهذه الآية من سورة الأنبياء وتتحدث عن إسحاق ويعقوب وغيرهما من الأنبياء، حيث يقول الله تعالى عنهم: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(الأنبياء:٧٤).. فليس الحديث هنا عن عامة المؤمنين، بل عن هؤلاء الأنبياء فقط.

ثم ليس صحيحًا أن الآية تتحدث عن وحي الأنبياء الذي لا يخصهم بل يخص أممهم. ذلك أن الأحكام التي يتضمنها ذلك الوحي تخص الأنبياء أيضا. فمثلاً، ألا يؤمر الأنبياء بفعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؟ فكيف يصح قول الراغب: أن الوحي هنا إلى الأمم بواسطة الأنبياء؟

ثم يقول الراغب: "ومن الوحي المختصّ بالنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ و﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾".

والحق أن هذا قول باطل، لأن الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ لم يكن خاصًّا به، بل كان للجميع.

ثم يقول الراغب: "وقوله: "﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ﴾، فوحيُه إلى موسى بوساطة جبريل، ووحيُه تعالى إلى هارون بوساطة جبريل وموسى".

أي أن الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام قد اعتُبر وحيًا إلى هارون عليه السلام أيضا، بالإضافة إلى ما نزل على هارون وحده منفصلاً.

لقد ذكر صاحب "المفردات" هنا أمرًا يمكن أن ينفعنا كثيرًا للردّ على "البيغاميين". فإنهم يقولون دائمًا من المحال أن يكون نبيٌّ تابعا لنبي (النبوة في الإسلام، ص ٤٣). فجوابنا: إن ما تقولونه باطل. انظروا الى هارون عليه السلام، فإنه كان نبيا، لكنه كان تابعًا لموسى عليه السلام حتى إن موسى لما ذهب إلى الجبل ووقع قومه في الشرك في غيابه، رجع غضبانَ أسفًا ونهر هارونَ بكل شدة قائلا: ﴿أفعصيتَ أمري﴾(طه:٩٤). فلو لم يكن هارون تابعًا لموسى فكيف جاز له أن يسخط عليه؟ هذا السخط والاستجواب دليل على أن هارون كان تابعا لموسى عليهما السلام، وبالتالي ثبت بطلان قول "البيغاميين".

والسؤال الآخر هو: إذا لم يكن هارون تابعًا لموسى، فكيف كان الوحي ينـــزل على هارون؟ فيجيب "البيغاميون": كان الاثنان يتلقّيان وحيًا واحدًا، أي ما كان ينـــزل على موسى أولاً كان ينـــزل بعده على هارون عليهما السلام، وكانت التوراة تنـــزل على الاثنين، مرة على موسى ومرة على هارون.

هذا القول ذروة في الحمق. كيف يمكن أن ينـــزل وحي واحد على شخصين بدون أي حكمة؟ وكأن الله تعالى – والعياذ به – كان يشكّ أنه إذا أنزل الوحي على أحدهما فسوف يتحايل عليه ﷻ في تبليغه للناس، فكان يُنـــزله على موسى أولاً ثم على هارون، حتى إذا كذب موسى في تبليغه أخذ به هارون، وإذا كذب هارون في تبليغه أخذ به موسى.

لكن صاحب المفردات قد حلّ هذا الإشكال تمامًا، إذ قال إن المراد من قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ﴾ أن الوحي كان ينـــزل على موسى عليه السلام عن طريق جبريل، أي في حراسة جبريل، ثم كان موسى يبلّغ هذا الوحي إلى هارون عليه السلام، وهذا كان يُعتبر وحيًا من الله تعالى إلى هارون. ولكن لما كان هارون عليه السلام نبيًا فكان الله تعالى يوحي إليه وحيًا آخر منفصلاً في بعض الأحيان، لكن لم يكن هذا الوحي ذا صلة بالشريعة والأحكام. كلا، بل إن الوحي المشتمل على الأحكام كان ينـــزل على موسى عليه السلام مباشرة، فكان يبلغه هارون عليه السلام. وهذا يعني أنه ما كان يحق لهارون أن يقول لموسى إنني تلقيتُ كذا وكذا من الوحي وعلينا أن نعمل بحسبه، بينما كان يحق لموسى أن يقول لهارون إن الله قد أنزل عليّ كذا وكذا من الوحي، فعليك العمل بذلك. غير أن هارون كان يتلقى أحيانا وحيًا ليس فيه شريعة ولا أحكام، إذ لا ينـــزل الله الوحي لإنزال الشريعة فقط، بل ينـــزله أيضًا لإظهار حبه ولطفه بعبده وليزيده إيمانًا وعرفانًا ويقينا (البخاري: كتاب الأدب، باب المقة من الله). فكان وحي هارون عليه السلام من هذا القبيل الذي لم يكن فيه أي شريعة، بل كان موسى عليه السلام هو من يتلقى وحي شريعة وأحكام، فكان يبلّغه لهارون.

باختصار، لقد أوضح صاحب المفردات هنا الفرق بين التابع والمتبوع من الأنبياء، وبالتالي قد حسم ذلك النـــزاع الدائر بيننا وبين "البيغاميين" حسمًا رائعًا.

ثم يقول صاحب المفردات: "وقوله ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾، فذلك وحيٌ إليهم بوساطة اللوح والقلم فيما قيل".

ويعني من قوله: "فيما قيل" أنه لا يرى هذا الرأي وإنما هو رأي المفسرين القدامى، فهم يرون أن الله تعالى أمر القلم أولاً، فكتب القلم على اللوح كل ما كان كائنا، فتأخذ الملائكة هذا العلم من اللوح وتبلّغه بحسب مشيئة الله تعالى.

وأرى أن هذه العقيدة الخاطئة تفنّدها بعض الأحاديث أيضًا. فقد ورد فيها أنه "إِذَا أَحَبَّ اللهُ العَبْد نَادَى جبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ. فَيُحِبُّهُ جبْرِيلُ، فيُنَادِي جبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثم يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ. (البخاري: كتاب الأدب، باب المِقَة من الله)

فإذا كان كل شيء مكتوبًا على اللوح، فلا داعي أن يقول الله تعالى لجبريل شيئًا، فإنه بنفسه يمكن أن يطّلع على كل شيء من اللوح.

ثم يقول صاحب المفردات: "وقوله ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾، فإنْ كان الوحيُ إلى أهل السماء فقط فالموحى إليهم محذوفٌ ذكرُه، كأنه قال: أوحى إلى الملائكة، لأن أهل السماء هم الملائكة، ويكون كقوله ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾. وإنْ كان الموحى إليه هي السماوات فذلك تسخيرٌ عند مَن يجعل السماءَ غيرَ حيّ، ونُطقٌ عند مَن جعَله حيًّا. وقولُه ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ فقريب من الأول".

قد ذكرتُ حتى الآن معاني الوحي كما ذكرها الأولون، والآن أبين لكم معنى الوحي كما أرى.

يتضح من القرآن والحديث وشهادات الذين تلقّوا الوحي أن الوحي أنواع.

فأولاً وقبل كل شيء يجب أن نضع في الاعتبار أن هناك نصًا قرآنيا حول الوحي، وهو قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(الشورى:٥٢). وأرى أن المفسرين لم يفهموا هذه الآية فهمًا صحيحا. فقد فسَروا قوله تعالى ﴿وَحْيًا﴾ بمعنى المنام والتسخير، و﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ بمعنى الوحي الذي لا يُرى اللهُ فيه، ويضربون على ذلك مثالَ وحيِ موسى عليه السلام، أما قوله تعالى ﴿يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ فقالوا معناه أن يأتي جبريل إلى أحد ويكلّمه بدون أن يُرى. (الكشاف، وفتح البيان)

نحن نتفق معهم في تفسير ﴿يُرْسِلَ رَسُولاً﴾، ولكن مع فارق أننا لا نسلِّم بأن جبريل يُرى دومًا عند نزوله بالوحي. لقد انخدعوا بتمثُّله في بعض المرات فظنوا أنه يُرى دائمًا عند نزوله بهذا النوع من الوحي.

أما قوله تعالى ﴿إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، فنختلف معهم كلية في شرح الأمرين. فاعتراضنا الأول هو أنهم يفسرون ﴿وحيًا﴾ بمعنى المنام، مع أن القرآن الكريم قد استعمل لفظ الوحي ٦٥ مرة مقرونًا بحرف (إلى)، ولكن ليس بمعنى المنام بل بمعنى الكلام في كل مرة. هناك خمس آيات أخرى ورد فيها لفظ الوحي بمعنى الكلام الذي ينـــزل من الله تعالى، وفي آية واحدة منها فقط استعمل القرآن لفظ الوحي بالمعنى المجازي أي التسخير، وهو قول الله تعالى ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾، وباستثناء هذه الآية فإن الوحي قد ورد في القرآن وفي كل مكان بمعنى نـــزول الكلام دائمًا. أفليس عجيبا ونحن نفسر القرآن أو نبحث مسألة الوحي، أن نفسر لفظ الوحي بمعناه المجازي أي المنام، غيرَ آبهين بمعناه الذي ذكره القرآن في ٦٥ مرة؟ صحيح أننا يمكن أن نفسر لفظ الوحي بالمعنى المجازي إذا استحال علينا الأخذ بمعناه المعروف، ولكن لا يحق لنا –من دون أي اضطرار– أن نغضّ الطرف كلية عن المعنى الذي ذكره القرآن الكريم للوحي ونأخذ المعنى الذي لم يذكره في أي مكان.

أما الاعتراض الثاني فهو على تفسيرهم لقوله تعالى ﴿أوْ مِنْ وَراء حِجاب﴾. فقولهم أن المراد منه حين لا يُرى الله، ومثاله ما نزل على موسى عليه السلام، قولٌ مرفوض أيضا؛ ذلك أن جملة ﴿مِنْ وَراء حِجاب﴾ جاءت بعد جملة ﴿إلاَّ وحيًا﴾، فلو فسرنا ﴿مِنْ وَراء حِجاب﴾ بمعنى ما نزل على موسى، فهذا يعني أنه لم ينـــزل عليه أي شيء من الوحـــي المشار إليه في جملة ﴿إلاّ وحيًا﴾، مع أن ما أوحي إلى موسى عليه السلام من الوحي اللفظي هو أعظمُ وحي بعد الوحي الـــذي نزل على الرسول ﷺ، فلا يمـــكن اعتبار ما نزل على مـــوسى خارج نطاق الوحي اللفظي.

واللافت أيضا أن هؤلاء ينقلون بأنفسهم قول الرسول ﷺ "انقطع الوحي، وبقيت المبشرات.. رؤيا المؤمن"، الذي اعتبر فيه الوحيَ بالمقام الأول والمنامَ في المقام الثاني، فلو كان قوله تعالى ﴿إلا وحيًا﴾ يعني المنام كما يقولون، فكان يجب أن يقول الرسول ﷺ انقطع الكلام من وراء حجاب وبقي الوحي.. أي انقطع الكلام الذي أنزله الله تعالى من وراء حجاب ولم يبق إلا الوحي أي المنامات. ولكن الرسول ﷺ يقول انقطع الوحي وبقيت المبشرات، مما يعني أن الوحي لا يعني مناما، وأن المعنى الذي يذكرونه للوحي باطل بداهة ومخالف للتعبير القرآني.

الحق أن الوحي كما يعني – لغةً – الإشارة والرمز والكتابة، فيعني الكلام الذي يراد إخفاؤه عن الآخرين. ونرى أن القرآن الكريم قد استخدم الوحي بالمعنى الأخير، أي كلام الله الذي يراد إخفاؤه من الآخرين، ولم يستخدمه بالمعاني الأخرى إلا قليلا جدا. فلم يستعمل فيها القرآن الوحي بمعنى المنام مطلقا، بينما استعمله بمعنى الرمز والإشارة والكتابة في مكان واحد، وذلك عند الحديث عن زكريا عليه السلام، أو استعمله بمعنى التسخير في مثال الوحي إلى النحل. أما الأماكن الأخرى فلم يستعمل فيها الوحيَ بمعنى الرمز أو الإشارة أو الكتابة أو التسخير قط، رغم أنه استعمل لفظ الوحي سبعين مرة.

الواقع أن الله تعالى قد سمى كلامه وحيًا بسبب إخفائه عن الآخرين. ذلك أن الوحي ظاهرة لا يجرّبها الناس عامة. إن ما يعرفونه أن أحدهم إذا تكلّم سمعه الجميع، وليس أن يكلّم زيدٌ فيسمعه عمرو دون الآخرين، فلذلك عندما يقال لهم إن شخصًا ادعى أن الله يكلِّمه يقولون مذهولين: أي هراء هذا! إذا كان الله يكلّمه فلماذا لا نسمع كلامه معه؟ لأن زيدًا إذا تكلّمَ بيننا نسمعه جميعًا، وكذلك لو أن الله تعالى قد كلّم موسى وعيسى ومحمدا بالفعل لوصل صوته إلى أسماعنا حتمًا. وحيث إن هذا الاعتراض يتولد في قلوب الناس عادة، فسمى الله كلامه وحيًا؛ فكأنما قال: إنكم أيضًا تتكلمون فيما بينكم أحيانًا بكلام تريدون إخفاءه عن الآخرين، فتُسمِعونه مَن تريدون أن يسمعه وتخفونه عمن لا تريدون أن يسمعه، فمثلاً يهمس أحدكم في أذن غيره، فيسمع كلامه ولكن الآخرين لا يسمعونه.

فاعلموا أن كلامنا أيضا من هذا القبيل، حيث يسمعه من نريد أن يسمعه ولا يسمعه من لا نريد أن يسمعه. إن كلامنا ذو شرف ويكون خاصًا بعبدنا بحسب قربه ودرجته منا، فلا نريد أن يشترك معه في سماعه الآخرون إذ لا نراهم يستحقون هذا الشرف. هذه هي الحكمة وراء اختراعنا هذه الوسيلة بقدرتنا، فنكلِّم مَن نريد من دون أن يسمع غيره. إن الله يهدف من الوحي أن يسمعه المخاطَب فقط دون غيره، كما يهدف إلى التأكيد على أنه تعالى يكلم عباده بهذا الأسلوب فعلاً وليس هذا نتاج أفكار العبد نفسه، فلذلك سمى كلامَه هذا وحيًا حتى يوقن الناس أن هذا الكلام ليس وهمًا، بل هو كلام يقيني وقطعي ككلامهم فيما بينهم، فعندما يهمس بعضهم في أذن صاحبه مع إخفائه عن الآخرين، فهل يشك السامع في الكلام الذي سمعه في أذنه؟ كلا لا يشك في هذا الكلام لا السامع ولا القائل. كذلك ينـــزل الله كلامه بطريق خفي على أذن العبد أو قلبه أو لسانه، إعلامًا للناس أنه تعالى لا يريد أن يُشرِك غيرَه في هذا السر، وأنه يريد أن يبلّغ هذا الكلام إلى الآخرين بواسطة عبده هذا، ليرسي قبوله وعظمته في الدنيا. هذا هو السر في إخفاء هذا الكلام بهذا الأسلوب، وإلا فهو كلام يقيني قطعي ككلام بعضنا بعضا.

باختصار، لقد سمى الله تعالى كلامه وحيًا ليؤكد أنه يكلّم عباده فعلاً، وأنه لا فرق من حيث الكلام بينه وبين ما يتكلم به الناس فيما بينهم. الفرق الوحيد أن الله تعالى يخلق هذا الصوت بحيث لا يسمَعه إلا مَن يريد الله أن يُسمعه. وهو كلام يقيني ككلام بعضنا بعضا.

أما المنام -الذي هو لغةٌ مجازية- فهو من قبيل الكلام الذي يتم ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾.. أي يكون بحاجة إلى تأويل، حيث يرى المرء شيئًا حقيقتُه مستورة وراء حجاب، فإذا رُفع الحجاب رآها، أما بدون رفعه فلا يقدر على أن يراها. مما يعني أن الوحي كلام لفظي يُراد إخفاؤه عن الآخرين، وأما ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ فهو كلام يُخفي الله حقيقته وراء حجاب عمن يُنـــزله عليه، فلا يطّلع على حقيقته إلا بعد زوال هذا الحجاب. ومثاله رؤيا الملِك المصري حيث رأى ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾(يوسف:٤٤)، فمهما قلتَ للناس إن البقرات السمان يأكلن

البقرات النحيفات فلن يفهموك، بل يضحكون عليك ويسمونك مجنونا. ولكن إذا رفعت الحجاب عن حقيقة هذه الكلمات، وقلت إن سنوات القحط السبع ستأكل ما وُفِّر في سنوات الخصبة السبع مِن غلال، فَهِمَ الناسُ المراد من قولك.

فالوحي النازل على موسى عليه السلام ليس من قبيل ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما ظن الأولون، بل إن ما نزل عليه يندرج في قول الله تعالى ﴿إلا وحيًا﴾.

إذن، الحقيقة أن الله تعالى قد بين بقوله ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا﴾ أننا نتكلم بكلام خفي، فيَسمعه مَن نريد أن يسمعه، من دون أن يَسمعه مَن لا نريد أن يسمعه. هذا الكلام لا يكون مشكوكا فيه، بل هو كلام يقيني قطعي ككلام زيد مع عمرو، فمتى يشك أحدهما فيما يدور بينهما من كلام؟ كل ما في الأمر أننا لا نريد أن نُسمع وحيَنا غيرَ من نريده. فكما يهمس بعضكم في أذن بعض، كذلك نُنـــزل كلامنا، فيسمعه من نريد أن يسمعه، أما غيره فلا يستطيع سماعه. والفارق بأنّ مَن يهمس في أذن صاحبه مضطرٌّ لاتّباع هذا الناموس من النواميس الطبيعية مخافة أن يسمعه الآخرون إذا تكلم بصوت عال، لكنا نتكلم بصوت عال ومع ذلك يسمعه مَن نريد إنزال الوحي عليه، أما الآخرون فلا يستطيعون سماع قولنا.

ثم ذكر الله تعالى النوع الثاني للوحي فقال ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾.. أي أننا نتكلم مع العبد رمزًا، أي ما لم يرفع العبد الحجاب عن حقيقة كلامنا لم يفهمها.

ثم ذكر الله تعالى النوع الثالث من وحيه فقال ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فيوحي بإذنه﴾.. أي لا ننـــزل هذا الوحي مباشرة، بل نكلّم عبدنا بطريق غير مباشر، فنبعث مَلَكًا رسولاً فيبلّغ كلامنا إلى بشر رسول. وهذا النوع من الكلام وحيٌ حتمًا، فلا يظنن أحد أن ما يبلّغه المَلَكُ الرسولُ ليس وحيًا، ولذلك أعاد الله تعالى هنا كلمة ﴿فيوحي﴾.. أي أن هذا النوع أيضا من وحي الله تعالى. كما أضاف كلمة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ للإشارة إلى أن هذا الملاك لا يبلِّغ الرسولَ البشرَ شيئًا من عنده، بل يبلّغه ما يبلّغ بإذننا ومشيئتنا. فهو وحيُنا ولكن يتم بواسطة الملاك.

وبهذه المعاني تصبح كلمات الآية كلها منسجمة منتظمة. فقوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ نوع من الوحي، و﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ نوع ثانٍ منه، و﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ نوع ثالث منه. قد جعل الله كلمةَ ﴿أو﴾ بين هذه الجمل الثلاث، للإشارة إلى ما يوجد بين أنواع الوحي الثلاثة من تغايُرٍ وفرق، فقوله تعالى ﴿إِلا وَحْيًا﴾ يعني وحيًا من دون واسطة، وقوله تعالى ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ يعني وحيًا في المنام أو بالإشارة والتلميح، وقوله تعالى ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ يعني وحيًا بواسطة.. أي يوحي الله به أولاً إلى الملك الرسول الذي يبلّغه البشرَ الرسول. وحيث إن هذا النوع الأخير يتم بالواسطة، وقد يشك البعض أنه ليس وحيًا، فأضاف الله تعالى هنا قوله ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ دفعًا لهذه الشبهة وموضحًا أن هذا النوع أيضا أحد أنواع الوحي.

إذن، فقد صار للوحي ثلاثة أقسام رئيسة:

أولاً: الوحي الحقيقي بلا واسطة، أي يُنـــزِل الله تعالى كلامه على عبده من دون واسطة.

ثانيا: الوحي الحقيقي بالواسطة، حيث يُنـــزل الله كلامه على الملاك فيبلّغه العبدَ. وقد ذكر القرآن هذا النوع في المقام الثالث، ولكني أذكره في المقام الثاني من أجل السهولة.

وثالثا: الوحي التابع، حيث لا تَنـــزل من عند الله كلمات معينة، بل ينـــزل كلامه في تمثيل ومجاز يكون بحاجة إلى تأويل، أو في صورة مشهد لا يحتاج إلى تأويل، ويُترك للعبد أمرُ تحويله إلى كلمات. ذلك أن الحقيقة تكون خفيةً وراء حجاب في مثل هذه المشاهد والتمثيلات التي يراها الإنسان، فيبينها بكلماته وبقياسه ويقول لقد أخبر الله تعالى كذا وكذا. لنفترض أنه يقول للناس إن الله أخبرني أن ابني سيكون من عباد الله الكاملين، فليس ضروريا أن يخبره الله بذلك بكلمات معينة مثل: "ابنك سيصبح من الكاملين"، بل يمكن أن يُريه الله تعالى هذه الحقيقة في صورة منام بأنه يذبح ابنه. فلأن هذا المشهد يُشبِه مشهدَ ذبح إسماعيل عليه السلام، فيقيس رؤياه بذبح إسماعيل ويبين تأويل ما رآه من وراء حجاب قائلا: لقد

أخبرني الله تعالى أن ابني سينال درجة عظيمة، أو يصبح من الكاملين. والآن فيما يتعلق بالكلمات فهي كلمات العبد، حيث لم يخبر الله بهذا الأمر بكلمات معينة، وإنما أراه مشهدا أنه يذبح ابنه، فيؤوله العبد ويخبر الناس بكلماته حقيقةَ ما رأى. وحتى لو كان تأويله صحيحا ١٠٠% إلا أنه لا يستطيع أن يقول حلفًا بالله تعالى بأنه تعالى قال له: إن ابنه سيكون من الكاملين. يمكن أن يحلف بأن الله تعالى أراه هذا المشهد، لكنه لن يستطيع أن يحلف أن الله قد قال له ذلك حرفيا، إنما يقول مثل هذا الكلام مَن ينـــزل عليه الوحي الإلهي بكلمات محددة. أما الذي يرى مشهدا كهذا، فيمكن أن يحلف على أنه رأى مشهدا وهذا مفهومُه، ولكنه لا يمكن أن يحلف بالله تعالى بصدد الكلمات التي يبين بها مفهوم ما رآه.

وحيث إن المرء يبين قصده لصاحبه بالكلمات، سواء بالكلام أو الكتابة، لذلك فإن الوحي الذي يكون بالكلمات هو أعظم شأنا، سواء ظهرت للمرء الكلمات مكتوبةً أو سمِعها أو جرتْ على لسانه أو قلبه –علمًا أن هذه الكلمات لا تتولد في قلبه، بل تجري فيه، فشتان بين الأمرين– ويستطيع أن يحلف عن كل كلمة من هذا الكلام بأن الله تعالى قد أنزلها عليه. كذلك، فسواء أُنزلَ هذا الكلام اللفظي مباشرةً أو بواسطة مَلَك رسول، فهو أعلى وأعظم شأنا من أنواع الوحي الأخرى لكونه كلمات يمكن أن يقرأها الإنسان على الآخرين ويقول: هذه هي الكلمات التي نزلت عليّ من الله تعالى. أما الوحي الذي ينـــزل بلغة المجاز والتمثيل فهو أدنى قدرًا من النوعين المذكورين من الوحي، لأن الإنسان يبينه بكلماته التي فيها احتمال الخطأ.

الواقع أنه كما يقول اللغويون عن كلمة من الكلمات بأن معناها كذا من حيث اللغة، كذلك يمكن أن نقول عن الوحي إن الوحي من حيث حقيقته يعني كلمات تنـــزل من عند الله تعالى، ثم أُطلقَ هذا اللفظ على أنواع الوحي الأخرى على سبيل المجاز والاستعارة، ولكنها أدنى شأنا من النوعين السابقين من الوحي، ولذلك لا يسميها البعض وحيًا، كما فعل الصوفية، إذ سموا الوحي اللفظي وحيا، ولكن لم يسموا ما سواه من أنواع الوحي وحيًا بل سمّوها رؤيا وكشفًا. فكثيرًا ما تقرأ في

كتبهم كلمات: الوحي، الكشف، الرؤيا. وقد راجت هذه التعابير على نطاق واسع حتى نستخدمها نحن في معظم الأحيان رغم انكشاف حقيقة الوحي في هذا العصر عن طريق المسيح الموعود عليه السلام، بل إنني أنا الآخر أكثرتُ من استعمال تعابير الوحي والكشف والرؤيا في خطبي وخطاباتي. وحيث إن لفظ الوحي أكثر استخدامًا للوحي اللفظي فلذلك قد خصّه الصوفية بالوحي اللفظي فقط، أما الأنواع الأخرى – التي هي في الحقيقة وحي – فلا يسمونها وحيا، بل يسمونها كشفا ورؤيا. بل إن البعض قد توسعوا أكثر، فيطلقون لفظ الوحي على وحي النبي، بينما يطلقون على وحي غير النبي إلهامًا. وسبب هذا التفريق عندهم هو أن أحد نوعَي الوحي أسمى من الشك والريبة، أما الآخر ففيه احتمال الشبهة والشك. ورغم أن الصوفية يفسرون –عادةً– الإلهامَ بما يُلقى في القلب، إلا أنني قد قرأت في كتبهم الوحي اللفظي الذي نزل عليهم، فقد كتبوا مرارا: لقد قال لي الله كذا، ثم سجلوا كلمات معينة لهذا الوحي الإلهي. فرغم تسجيل كلمات الوحي النازل عليهم، لا يقولون إن الله أوحى إليهم، بل يسمون ما نزل عليهم إلهامًا، ويقولون "إن الوحي من خواص الأنبياء المرسلين، والإلهام من خواص الولاية، والثاني أن الوحي مشروط بالتبليغ". باختصار، إذا نزل عليهم كلام لفظي سموه إلهامًا، وإذا رأوا مشهدًا بأعينهم سموه كشفًا، وإذا رأوا مشهدا في المنام سمّوه رؤيا.

إذن، فقد اخترعوا اصطلاحا جديدا من عند أنفسهم، فالوحي عندهم هو ذلك الكلام الإلهي القطعي اليقيني الذي ينـــزل على الأنبياء، والإلهام عندهم هي الكلمات التي يكشف الله بها مشيئته على غير الأنبياء. وحيث إنهم لا يُدرِجون هذا النوع من الوحي اللفظي في رؤيا ولا في كشف، إذ ليس معه مشهد يرونه، كما لا يريدون أن يسموه وحيًا، فاخترعوا له اسما آخر، وهو الإلهام، تمييزًا بين الكلام النازل على النبي وبين الكلام النازل على غيره.

ثم هناك سبب آخر لاعتبار الرؤيا أو الكشف أدنى درجة من الوحي اللفظي، وهو أن أفضل الوحي الوحيُ المتلُوّ، أما الوحي الذي يتم في لغة المجاز والتصوير.. أي المنام والكشف.. فليس وحيًا مَتْلُوًّا. ذلك أن المتلوّ يعني ما يمكن تلاوته وقراءته،

ولكن إذا أُخبر المرء بأمر في رؤيا وكشف فلا يمكن أن يقرأه بنفسه أو يقرأه على الآخرين، لأنه ليس كلماتٍ، وإنما يبين كيفية ما رأى بكلماته هو. فجميع أهل الخبرة يقولون إن الوحي الإلهي الذي يتمّ بكلمات هو أعلى درجة لأنه يمكن أن يُتلى ويُقرأ. أما الكشف أو الرؤيا فهو أدنى من الوحي المتلو إذ لا يمكن أن يُقرأ. فمثلا رأى النبي ﷺ مرة أن بقراتٍ تُذبح (البخاري: كتاب التعبير)، ونحن نؤمن أن هذه الرؤيا وحي قطعي ويقيني كغيره من الوحي اللفظي الذي نزل عليه ﷺ، لكن السؤال كيف يمكن ذكر هذا المشهد في القرآن؟ وهل تُرسَم في المصحف بقرات تُذبح؟ وكيف تُتلى هذه الرسوم وتُقرأ؟ فحيث إن هذا الوحي لا يمكن تلاوته فهو أدنى من النوعين الآخرين من الوحي.

بيد أنّ الوحي الذي يتم بلغة التصوير والتعبير له فوائده، فلا يقال لماذا لا ينـــزل الوحي اللفظي على النبي دائما، ولماذا تُكشف عليه بعض الأمور من خلال الكشف والرؤيا. ومن محاسن الوحي التصويري -التي لا يمكن أن نستغني عنه- أنه يساعد على بيان الأمر بإيجاز شديد. ففي الرؤيا أو الكشف يمكن أن ترى في لمح البصر شخصًا مقطِّبًا وعابسًا تعلو على وجهه الكثير من مشاعر الضيق والغضب، ولكن إذا حاولتَ وصف هذا المشهد بالكلمات وذِكْرَ ما رأيت في الوجه من مشاعر وأحاسيس، فمهما أوجزتَ واختصرت فسوف تضطر لاستخدام عشرة أو عشرين جملة، ومع ذلك قد يبقى وصفك ناقصًا. ولذلك إذا أراد الله تعالى أن يكشف على عبده أمرًا في وقت قصير وبصورة موجزة جدا، وبتأثير أقوى من تأثير الكلمات، أنزل عليه وحيه بلغة التصوير والتمثيل، فتنكشف على المرء أمور في لمح البصر يحتاج بيانها إلى عشرات الجمل.

ومن منافع إنزال الوحي بلغة التصوير استمالةُ قلب المؤمنين. فمثلا إذا أراد الله تعالى أن يقول لنبيه: لا تحزنْ، إن دينك سيزدهر حتمًا، أراه في المنام أو الكشف أحدَ أتباعه اسمُه عبدُ القوي مثلاً. وهذا يحقق هدفين: تبشير للرسول بازدهار الدين، وفرحةٌ لهذا المؤمن الذي اسمه عبد القوي والذي رآه النبي في رؤياه. فمثلا حين رأى الرسول ﷺ في الرؤيا أبا بكر وعمر (البخاري: كتاب التفسير، باب نزْع الذَنوب)،

فلم يكن الله تعالى يريد بذلك الإشارةَ إلى أمر معين فقط، بل أيضا استمالة قلبَي أبي بكر وعمر أيضًا، إذ يفرحان بأن النبي ﷺ رآهما في منامه.

لقد ثبت من هنا أن في إنزال الوحي بهذا الطريق فوائد إضافية. لا شك أن هذه الفوائد ضمنية ولا تكون مقصودة بحد ذاتها، لكنها لا تتحقق بالوحي اللفظي بل بالوحي التصويري، لذلك يُري الله رسوله بعض الأمور الهامة بلغة تصويرية.

بيد أنه من سنة الله تعالى أن ما يُريه بلغة التصوير يعيده بوحي لفظي، لتتحقق فوائد الوحي اللفظي وفوائد الوحي التصويري، ومثاله: واقعة المعراج وواقعة الإسراء، حيث تمّ بالطريقتين. واقعة المعراج مذكورة في الحديث مفصلةً كما ذكرها القرآن الكريم في سورة النجم، أما واقعة الإسراء فقد رآها النبي ﷺ بلغة التصوير، كما ذُكرت في الوحي اللفظي في سورة الإسراء (البخاري: كتاب المناقب). لقد ذُكرت هاتان الواقعتان في القرآن الكريم لتصبحا وحيًا متلوًّا، كما رآهما الرسول ﷺ بلغة تصويرية لتتحقق المنافع الإضافية المنوطة بهذا الطريق. التدبر يكشف لنا أن فحوى واقعة الإسراء ليس إلا الإخبار بأن الله تعالى قد فضّل النبي ﷺ على الأنبياء جميعا، لكن ما رآه الرسول ﷺ في الرؤيا هو أن جبريل جاءه بمطيّة اسمها البراق، فركبه وبلغ بيت المقدس. ثم لما حكى النبي ﷺ للناس ما رأى، قالوا إذا كنت قد ذهبتَ إلى القدس على البراق فيجب أن تصف لنا معالم القدس. فأخذ النبي ﷺ يصف لهم معالمه، مما زاد المؤمنين إيمانا (البخاري: كتاب المناقب). والواضح أن هذه الأمور لا تتحقق بالوحي اللفظي فقط. أو مثلا ورد في حادثة المعراج أن النبي ﷺ رأى قافلة للمكيين فقدوا بعيرا لهم فأخذوا يبحثون عنه، فذكر ذلك للكفار. وبعد أيام وصلت القافلة إلى مكة فعرفوا أنهم بالفعل فقدوا بعيرا لهم في الطريق (الدر المنثور: سورة الإسراء). فهذه فائدة إضافية فيما رآه النبي ﷺ من حادث الإسراء، مما زاد المؤمنين إيمانا، وبكّت الكافرين الذين كانوا يقولون إن محمدا يفتري على الله.

إذن، فالله تعالى يختار أحيانًا لغة التصوير والتمثيل لبيان وحيه الهامّ.. فيُريه أولاً في صورة الكشف أو الرؤيا، ثم يُنـــزله في صورة وحي لفظي أيضا. ولكن الوحي اللفظي هو الباقي الدائم، على عكس الوحي التصويري.

وهناك مثال لذلك في وحي للمسيح الموعود عليه السلام أيضًا، حيث اجتمع الوحي التصويري والوحي اللفظي، وهو:

"جاءني آيل واختار، وأدار إصبعه وأشار: إن وعدَ الله أتى، فطوبى لمن وجد ورأى." (التذكرة ص ٥٥٩، وحقيقة الوحي، الخزائن الروحانية المجلد ٢٢ ص ١٠٦)

علمًا أن المراد من "آيل" هو جبريل. فالمسيح الموعود عليه السلام يذكر هنا أنه رأى مشهدًا أن جبريل أتاه واختاره وأدار إصبعه مشيرًا إلى أنه قد حان أن ينجز الله وعده. ولكن الله تعالى قد سجّل هذا الحادث بوحيه اللفظي أيضًا ليتأثر المؤمنون مما حصل. الواضح أن المرء إذا رأى جبلا شامخا وأخبر الناس به فلا يمكن أن يتأثروا منه كتأثره من رؤيته، ومن أجل ذلك يُري الله تعالى العبد أمرًا على صورة مشهد ليزيد تأثيره فيه، ثم يسجّله في الوحي كي يتأثر منه الآخرون أيضًا. فمثلا إن الوقع الذي تركه مشهد جبريل في المسيح الموعود ﷺ لا يمكن أن يوجد في الوحي اللفظي وحده، وفي المقابل لا يمكن أن يتأثر الناس بذكره هذا المشهد لهم فقط، بل لا بد أن ينـــزل وحي لفظي بصدد ما حصل لكي يتأثروا منه. من أجل ذلك يسجل الله تعالى وحيه الهامّ بالطريقتين، التصوير والكلمات.

والآن أبين لكم بناء على خبرتي أنواع الوحي المتفرعة من الأنواع الثلاثة الرئيسية المذكورة في القرآن الكريم.

الأول: الرؤيا الفردية والمشتركة التي هي بحاجة إلى تأويل.

ومثاله أن يرى المرء أن جدار بيت فلان قد تهدّم. فالآن ليس المراد أن جداره يتهدم بالضرورة، بل المراد أن سبب حمايته يزول، أو أن الذين يحمونه في المصائب سوف يخذلونه، أو يقع عليهم الوبال. ومثل هذه الرؤيا يمكن أن تكون فردية أو جماعية أحيانا.. أي يراها شخص واحد أو يراها غيره أيضا. والسبب أن الوحي

الذي ينـــزل على غير النبي لا يكون قطعيا ويقينيا، ومن سنة الله تعالى أنه يُري الرؤيا الواحدة أكثرَ من شخص تأكيدًا للأمر. وقد جربنا مرارا أن شخصا يرى رؤيا ويرى الآخر أيضًا نفس الرؤيا.

فذات مرة ذكرتُ في مجلسٍ رؤيا رأيتها، فنُشرت بتاريخ ١٩٤٤/٥/٢٤ في جريدة "الفضل"، فلما قرأ أحد الإخوة رؤياي في الجريدة كتب لي أن أحد أصدقائه غير الأحمديين كان قد حكى له رؤيا مماثلة تمامًا وأخبره أنه قيل له في الرؤيا نفسها أن هذه الرؤيا قد رآها خليفة المسيح أيضا. (جريدة الفضل، ١٩٤٤/٥/٢٧).

ويحدث أحيانًا أن شخصين يَريان رؤيَين مختلفتين لهما تأويل واحد. فقبل أيام رأيتُ رؤيا عن روسيا، وهي منشورة في جريدة "الفضل" في ١٩٤٥/٩/١. وفي اليوم الذي رأيتها فيه تلقيت رسالة من "ميان روشن دين الصائغ" ذكر فيها رؤيا رآها عن روسيا. والعجيب أن تأويل رؤياه هو نفس تأويل رؤياي. فترى أنني لم أكن على علم برؤياه، و لم يكن هو على علم برؤياي، ومع ذلك أرى رؤيا وأبعثها لجريدة "الفضل"، و"ميان روشن دين" يرى رؤيا ويكتبها لي، وتعبيرهما واحد.

باختصار، يُري الله تعالى عبدًا رؤيا ويُري غيره رؤيا مماثلة تأكيدًا لعبده بأن رؤياه صادقة وحقّ، كما يحدُث أيضا أن الاثنين يريان مشهدين مختلفين تعبيرهما واحد.

الثاني: الرؤيا الفردية والمشتركة التي مثل فلق الصبح.

أحيانا يرى المرء في الرؤيا أن جدار البيت سقط، وفي الصباح ينـــزل المطر غزيرا ويتهدم الجدار فعلاً. وهذه الرؤيا أيضا تكون فردية أحيانا، وأحيانا يرى أكثر من شخص رؤيا مماثلة، فيقع ما رأوه مثل فلق الصبح دونما تأويل. ولي خبرة واسعة بمثل هذه الرؤى بفضل الله تعالى، ومن كثرة ما يحدث من أحداث يخيّل إليّ أن الحادث قد تكرّر.

الثالث: المشهد الفردي والجماعي المشابه للنوم والذي هو بحاجة إلى تأويل.

أحيانا يكون الإنسان ما بين النوم واليقظة، فيرى مشهدا بحاجة إلى تأويل، وهذا المشهد قد يراه فرد واحد وقد يراه أكثر من فرد.

الرابع: الكشف الفردي والجماعي المشابه للنوم الذي يقع مثل فلق الصبح.

أحيانًا يرى الإنسان ما بين اليقظة والنوم مشهدًا لا يكون بحاجة إلى تأويل، بل يتحقق حرفيا. وهذا المشهد أيضا يكون فرديا وجماعيا.

الخامس: الكشف الفردي والجماعي الذي يكون في حالة اليقظة ويكون بحاجة إلى تأويل.

بعض الأحيان يرى المرء في حالة اليقظة مشهدًا يحتاج إلى تأويل. فذات مرة جاء شخص إلى المسيح الموعود عليه السلام وقال: لقد رأيتك في اليوم الفلاني في محطة قطار كذا، فهل ذهبتَ هنالك؟ فقال عليه السلام: لا، يبدو أنك رأيتَنا في الكشف.

السادس: الكشف الفردي والجماعي الذي يكون في اليقظة ويتحقق مثل فلق الصبح.

أحيانا يرى المرء في اليقظة مشهدًا ليس بحاجة إلى تأويل، بل يتحقق حرفيًا مثل فلق الصبح. هناك أمثلة عديدة على ذلك في كشوف المسيح الموعود عليه السلام. فمرة رأى في الكشف أن ابنه "مبارك أحمد" ملقًى على الأرض بجانب حصيرٍ وقد أُصيب إصابة بالغة. و لم تمض ثلاث دقائق حتى انزلق "مبارك أحمد" الواقف بجانب الحصير وأصيب إصابة بالغة حتى بلّل الدم ثيابه. (التذكرة ص ٣٣٦، ونزول المسيح، الخزائن الروحانية المجلد ٩ ص ٥٩٧).

وكذلك كان المسيح الموعود عليه السلام يحكي: كنتُ مصابا بالإسهال مرة وكنت أضطر للذهاب إلى المرحاض مرة بعد أخرى، فأردت أن يكون المرحاض نظيفًا كل النظافة لكي لا أتضايق، فجاءت الكنّاسة، فقلتُ لها: هل نظّفت المرحاض جيدا، فقالت: نعم، نظفته. فلعلها كذبتْ أو بقيتْ بعض النجاسة في زاوية من المرحاض بدون عمد منها، إذ طرأت على المسيح الموعود عليه السلام حالة الكشف فورًا، فرأى نجاسة في زاوية من المرحاض، فقال لها: لماذا تكذبين، إذ لا تزال هناك نجاسة لم تنظفها. فأخذتها الحيرة من معرفة حضرته ذلك وهو جالس في غرفته. (التذكرة ص ٣٦٨، وجريدة "بدر" المجلد ١ عدد ١١، ٩ يناير ١٩٠٣ ص).

وهذا النوع من الكشف يكون فرديا أحيانا وجماعيا أحيانا.

السابع: الكلام المباشر الذي ينـــزل على الأذن فرديا وجماعيا.

أحيانًا ينـــزل وحي الله في صورة ألفاظ على أذن الإنسان، فيسمع من الغيب صوتًا أن هذا قد حصل أو سيحصل أو عليك أن تفعل كذا.. أي ينـــزل هذا الكلام بصيغة الماضي أو المستقبل أو بصيغة الأمر أيضا. وهذا النوع من الوحي يكون فردياً وجماعيا، أي يسمعه شخص واحد أو أكثر. ولي خبرة شخصية في هذا المجال، فذات ليلة أوحيَ إلى المسيح الموعود عليه السلام "إني مع الأفواج آتيك بغتة"، وفي الليلة نفسها جاءني ملاك وأخبرني أن المسيح الموعود عليه السلام قد تلقى الليلة وحيًا: "إني مع الأفواج آتيك بغتة". وفي الصباح قال لي المفتي محمد صادق: اذهبْ وقُلْ للمسيح الموعود عليه السلام أن يكتب لي إلهاماته الجديدة -كان حضرة المفتي ينشر إلهامات المسيح الموعود عليه السلام الجديدة في جريدته، وكان قد أمرني سلفًا أن أدخل كل صباح على حضرته عليه السلام ليكتب لي وحيه الجديد لأسلّمه لحضرة المفتي- فكتب لي المسيح الموعود عليه السلام إلهاماته التي تلقاها في الليلة الماضية، ولكنه نسي أن يسجل فيها ذلك الوحي: "إني مع الأفواج آتيك بغتة". فخرجتُ من عنده وقرأتُ الإلهامات، و لم أجد فيها ذلك الوحي الخاص، فلم أتجاسر من شدة الخجل أن أرجع إليه وأُخبره ما قال لي الملاك، كما لم أُرِدْ أن أكذِّب ما قال لي الملاك، فبدأت أذهب إلى بابه مرة وأرجع مرة أخرى، وقد حصل هذا مرارا، وأخيرا تشجعت وذهبت وقلت له عليه السلام: لقد أخبرني ملاكٌ البارحة أنك تلقيتَ إلهاما: "إني مع الأفواج آتيك بغتة"، ولكنه ليس مذكورا في هذه الإلهامات؟ فقال عليه السلام: نعم، لقد تلقيتُ هذا الإلهام فعلاً لكني نسيت أن أكتبه لك. ثم فتح حضرته دفتر إلهاماته وسجّل منه هذا الإلهام ليُنشر في الجريدة.

فهذا وحيُ الله المباشر الذي نزل على أذن المسيح الموعود عليه السلام، كما أُخبرتُ به أيضًا.

الثامن: الكلام المباشر الذي ينـــزل على القلب فرديا وجماعيا.

هذا النوع مختلف عن النوع السابق. في النوع السابق ينـــزل الوحي على الأذن، أما في هذا فعلى القلب. وحيث إن حسّ الأذن معروف للسمع، فيمكن أن

يفهم الجميع نزول الوحي على الأذن، ولكن حسّ القلب للسماع غير معروف فلا يفهمه كل واحد، ولكنه أحد طرق الوحي فعلاً، حيث يتخذ الله تعالى قلب العبد مهبطا لوحيه أحيانا، فلا يحسّ أن الكلمات تنـــزل على أذنه، بل يحس أنها تنـــزل على قلبه. علمًا أن هذا الوحي ليس من قبيل الخيال والفكرة التي تخطر بالقلب.

وهذا الكلام أيضا يكون فرديا أو جماعيا.

التاسع: الكلام المباشر الذي ينـــزل على اللسان فرديا وجماعيا.

ومن طرق الوحي أن الأذن لا تسمع أي شيء، ولكن يجري على لسان المرء كلام، حيث يخيل له أن لسانه تحت سيطرة غيره، فلا يزال لسانه يردد هذا الكلام بسرعة حتى بعد زوال تلك الحالة التي تستولي عليه عند الوحي، ذلك لكي يحفظ هذا الوحي جيدًا. وقد يُشرِك اللهُ غيره بهذا الوحي كشاهد.

العاشر: الكلام المباشر الذي ينـــزل على العيْن فرديا وجماعيا.

أحيانا ينـــزل كلام الله على العيون، أي تُعرَض على الإنسان عبارة مكتوبة فيقرؤها ويطّلع على مشيئة الله، وهذا الوحي أيضا يكون فرديا أو جماعيًّا، فأحيانا يرى وحدَه الشيءَ المكتوب وأحيانا يشترك معه في رؤية هذا المشهد آخرون. وقد سبق أن بينتُ أن من معاني الوحي الكتابة، فهذا القسم العاشر من الوحي يندرج تحت الكتابة، حيث يرى المرء كلمات مكتوبة. والحق أن قطعية الوحي تتوقف على الكلمات لا على الأذن ولا العين ولا القلب ولا اللسان. والوحي الذي ينـــزل في صورة كلمات أعلى وأفضل من أي نوع آخر. ولا شبهة في قطعيته، سواء تيسرت هذه القطعية بالأذن أو القلب أو اللسان أو العين. والوحي الذي يستطيع المرء أن يحلف بالله تعالى أن كلّ لفظ وحرف وحركة وسكون منه قد نزل عليه من الله تعالى هو الأعلى والأفضل من جميع أنواع الوحي.

الحادي عشر: الكلام المباشر الذي ينـــزل على الأذن واللسان معًا.

وهذا الوحي الإلهي لا ينـــزل على الأذن فقط، بل يردده اللسان أيضا، وعندما تزول حالة غيبوبة الوحي تشعر الأذن بأنها قد سمعت كلام الله تعالى، ويشهد اللسان أيضًا أنه قد نزل عليه كلام الله.

الثاني عشر: الكلام المباشر الذي ينـــزل على العين واللسان معًا.

وفي هذا النوع من الوحي يرى العبد لوحة مكتوب عليها الوحي، بينما يردد لسانه كلمات الوحي.

الثالث عشر: الكلام المباشر الذي ينـــزل على القلب واللسان معًا.

ففي هذه الحالة ينـــزل الوحي على القلب ويشترك فيه اللسان أيضا.

الرابع عشر: الكلام المباشر الذي تشترك فيه الحواس الظاهرة والباطنة معًا.

في بعض الأحيان ينـــزل كلام الله على القلب بجلال من ناحية، وعلى الأذن من ناحية أخرى، كما يردده اللسان من ناحية ثالثة.

الخامس عشر: الكلام غير المباشر الذي يسمعه العبد عن طريق ملاك يراه.

ينـــزل هذا الكلام بواسطة، فبدلاً أن يسمع الإنسان كلام الله مباشرةً يرى ملاكًا فيخبره بالأمر، ومثاله ما حصل مع النبي ﷺ عند بدء الوحي في غار حراء.

السادس عشر: الكلام غير المباشر الذي يراه العبد عن طريق ملاك يراه.

ومثاله ما ورد في الحديث أن جبريل أرى النبي ﷺ في غار حراء قطعة ديباج فيها عبارة مكتوبة أيضًا. (الدر المنثور: سورة العلق)

السابع عشر: الكلام غير المباشر الذي يُسمع عن طريق ملاك لا يُرى.

في هذا النوع من الوحي لا يرى الإنسان أي ملاك، لكنه يسمع صوتًا يقول: أنا أقول كذلك، أو يقول الملاك: لقد أمرني الله تعالى بتبليغك هذا الأمر.

الثامن عشر: الكلام غير المباشر الذي يُرى، بواسطة ملاك لا يُرى.

وفي هذه الحالة يرى العبد لوحة مكتوب عليها شيء ويبدو بوضوح أن يدًا أخرى تحملها، ولكن لا يُرى الملاك الذي يحملها.

التاسع عشر: الكلام غير المباشر الذي يُسمَع في اليقظة عن طريق ملاك يُرى، من دون أن يشترك فيه الآخرون.

فبينما يكون الإنسان في حواسه الظاهرة وكاملِ وعيه، يرى ملاكًا يُسمِعه كلام الله، ولكن لا يشترك في هذه العملية أي شخص آخر، فلا يرى الآخرون هذا الملاك ولا يسمعون صوته.

العشرون: الكلام غير المباشر الذي يُسمَع عن طريق ملاك يُرى ويشترك في سماعه الآخرون، لكن لا يرون الملاك.

ورد في البخاري أن عائشة رضي الله عنها سمعت النبيَّ ﷺ يحدّث أحدا، فقالت: يا رسول الله، من الذي تكلّمه؟ قال: لقد جاءني جبريل وحدّثني، وكان يسلّم عليك. (البخاري: كتاب المناقب)

فعائشة رضي الله عنها قد سمعت الحوار بينهما، لكنها لم تر الملاك. ففي هذا النوع من الوحي يُشرَك الآخرون سماعًا لا رؤيةً.

الحادي والعشرون: الكلام غير المباشر الذي يسمعه العبد عن طريق ملاك يراه ويشترك فيه الناس سماعًا ورؤية.

ومثاله حادث مجيء جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبي. لقد حضر في مجلس النبي ﷺ وحدّثه وسمعه الصحابة، وعندما ذهب قال النبي ﷺ: ذلك جبريل جاء يعلّمكم دينكم. فالصحابة سمعوا كلام الملاك ورأوه أيضا. (مسلم، كتاب الإيمان)

الثاني والعشرون: اشتراك الرؤيا والكلام والواقع المادي الظاهر.

أحيانا تُجمع كل هذه الأمور معًا، فيكون هناك رؤيا وكلام والواقع الظاهر. ومثاله: حادث ظهور بُقعاتِ الحبر الأحمر على قميص المسيح الموعود عليه السلام، فإنه قد رأى في الرؤيا مشهدًا، كما تكلّم مع الله تعالى، ثم في الظاهر بقيت بقعات الحبر الأحمر ثابتة على قميصه. (سرمه جشم آريه، الخزائن الروحانية المجلد ٢ ص ١٨٠)

الثالث والعشرون: الوحي القلبي الخفيّ.

في هذا الوحي لا توجد كلمات، بل يُلقي الله مشيئته على قلب العبد، ومثاله: قول الرسول ﷺ مرة: لقد نفَث روحُ القدس في رُوعي كذا، فلم أعُدْ أتردد بعدها. هذه الكلمات تبين بوضوح أن الوحي لم ينـــزل على النبي ﷺ بصورة كلمات، بل هو وحي قلبي نزل بصورة إلقاء فقط.

ولا يغيبن عن البال بصدد هذا النوع الأخير من الوحي أنه لا ينـــزل وحده فقط على المرء، بل يسبقه نزول أنواع الوحي الأولى عليه، حتى لا يبقى هناك أي مجال للانخداع. وقد وقع "البهائيون" في الخدعة لعدم فهمهم حقيقة هذا النوع من

الوحي. نحن لا ننكر هذا النوع من الوحي، إذ تدل عليه تجربتنا، وهذا ما تؤكده أقوال الرسول ﷺ والمسيح الموعود عليه السلام بأن هناك نوعا من الوحي هو الوحي القلبي الخفي، فلا يمكن القول أن الوحي الذي يدّعيه "البهائيون" لا وجود له، لكنا نقول حتمًا إن البهائيين لم يفهموا هذا النوع من الوحي، إذ يُسمّون كل أفكار القلب وحيًا، فكل ما كان يخطر بقلب "بهاء الله" من أفكار، وكل ما كان يكتبه من كلمات كان يسميه وحيًا قلبيا خفيا.

وحيث إننا نعترف أن هناك نوعًا من الوحي لا تنـــزل فيه كلمات بل يُلقَى أمرٌ في القلب من عند الله، فلا ينخدعن بعض الناس بما يدعيه البهائيون، لذا فينبغي على جماعتنا أن تتذكر أمرًا ينفعنا كثيرا في إزالة السمّ الذي ينفثه البهائيون، وهو أن من تجارب المبعوثين من عند الله تعالى أن هذا النوع من الوحي لا ينـــزل وحده، بل يسبقه أنواع الوحي الأخرى، لأنه إذا نزل وحده فكل إنسان يمكن أن يدّعي أنه يتلقى الوحي من الله، ويتعذر التمييز بين الصادق والكاذب، ودفعًا لهذه الشبهة ينـــزل الله على عبده الأنواع الأخرى من الوحي أولاً، وعندما يوقن الناس بصدقه نتيجة تحقُّق ما ورد في وحيه السابق من أنباء، يُنـــزِل الله عليه الوحي القلبي الخفي أيضا. من المحال ألا يُعطى المرء أي آية على صدقه ومع ذلك يتلقى الوحي الخفي القلبي فقط. وعلى كل حال، فهذا الوحي يكون أقل كمية من الوحي اللفظي جدا.

وأضرب لبيان ذلك مثالاً: لقد جاءني مرة عبد الله التيمابوري* وقال: لماذا لا تؤمنون بي وتؤمنون بحضرة الميرزا (مؤسس الأحمدية عليه السلام)؟ فقلت: نحن نؤمن بحضرته لأننا رأينا الآيات الدالة على صدقه متتالية، فأيقنّا بصدقه. فقال: هذه الأمور تكون فيما بعد، فأي آية رأى مَن آمنَ به في البداية؟ فقد آمن به حضرة المولوي نور الدين –مثلاً– من دون أن يرى أي آية. قلت: هناك مَن يكون كأبي

* كان هذا الشخص من جماعتنا، ثم ادعى أنه صاحب دعوى يوحى إليه ويلهم، وتمّ فصله عن الجماعة. (المترجم)

بكر، ولا يحتاج لرؤية الآيات، بل يرى أنه لو آمن بعد رؤية الآيات فسوف تقلّ درجته. ورد في الحديث صراحة عن أبي بكر ﷺ أنه لما بلغه خبر دعوى النبي ﷺ جاءه وقال له: هل ادعيتَ تلقي الوحي؟ فأراد النبي ﷺ أن يوضح له بعض الأمور الدالة على صدقه، فمنعه أبو بكر وقال: أرجو أن تخبرني فقط هل أعلنت أنك نبي الله؟ فقال النبي ﷺ: نعم. فقال أبو بكر، يا رسول الله، إني أؤمن بك. ثم بين له قائلا: لقد رفضت سماع الأدلة على صدقك لأني لو آمنتُ بك بعد سماعها لاعتبرتُ إيماني ضعيفا. لم أرد أن يكون أساس إيماني بك على أدلة وآيات جديدة، بل نويت أن أتشرف بالإيمان بك بناءً على ما شاهدتُ من أخلاقك السامية. وهذا هو حال الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام أيضا. فقال لي التيمابوري: فلماذا تشترط رؤية الآيات مني للإيمان بي؟ قلت: لا شك أن البعض يؤمنون بالنبي قبل ظهور الآيات الساطعة التي تظهر فيما بعد، ولكن الله تعالى قد جعل لإيمانهم أسبابًا يقينية، وهي عمل النبي وسيرته وأسوته قبل دعواه، ولكن لا ينتفع من ذلك إلا من يعرفه معرفة شخصية. لقد وجد أبو بكر الدليل على صدق النبي ﷺ فيما رأى منه من أمانة وخدمة للإنسانية، وقد آمن الخليفة الأول ﷺ بالمسيح الموعود عليه السلام لما رأى من علاقته بالله تعالى وحماسه لإحياء الإسلام وخدمته العظيمة له حتى كتب كتابه العظيم "البراهين الأحمدية". كان الصلحاء في زمنه الأول يرون أنه قد ألف كتابا باسم "البراهين الأحمدية" ساق فيه أدلة قوية على صدق الإسلام وتحدى أعداء الدين الحنيف للمبارزة، وهذا عمل لا يتم إلا بتأييد الله تعالى، فلم يملك هؤلاء الصلحاء ذوو القلوب الصافية إلا أن يشهدوا بأن هذا هو بطل الإسلام وحامي الدين الحنيف من هجمات أعدائه. فلمّا أعلن دعواه بعد ذلك آمن به هؤلاء الصلحاء المطّلعون على أحواله فورًا وعلموا أن هذا الإنسان الذي وهبه الله ذلك النور الذي مكّنه من تأليف كتاب عظيم كالبراهين الأحمدية لا يمكن أن يكون كذابا. لقد ذاد عن حياض الإسلام مِن قبل، وإذا كان يدعي الآن بأن الله تعالى قد أقامه لحمايته، فهو صادق فيما يقول. فلم يروا حاجة إلى رؤية آية جديدة من حضرته بعد آية البراهين الأحمدية، وانضموا إلى جماعته.

فقال لي التيمابوري: فما هي الآية التي تريد مني؟ قلتُ: لم يستطع المسيح الموعود عليه السلام إكمال "البراهين الأحمدية"، فلعل الله لم يوفّقه لذلك لكي يأتي بعده مَن يكمله، والآن تدّعي أن الله تعالى قد بعثك مأمورا من عنده، فلو أكملتَه فسوف أصدّقك في دعواك معتبرا هذه الآية كافيةً على صدقك. فقال: طيب. فذهَب و لم يكتب حتى اليوم سطرا واحدا لتكميل الكتاب.

فكما أن الله تعالى يخلق في حياة المأمور قبل بعثته شواهد ودلائل تحفّز الناس على الإيمان به عند دعواه، كذلك لا بد لمن يدعي نـــزول الوحي الخفي عليه أن يَنـــزل عليه قبل ذلك أنواع الوحي الأخرى، وأن يوجد على صدقه دلائل وشواهد حتى لا يفكر أحد أن هذا الإنسان متوهم أو مجنون. فمثلا لم يتردد الصحابة في تصديق النبي ﷺ عندما قال إن روح القدس قد نفث في روعي، لأنه سبق أن نزل عليه الوحي الذي كان يتحقق مثل فلق الصبح، كما تلقى الوحي الذي ينـــزل به جبريل، كما نزل عليه الوحي الذي يكون من وراء حجاب، فأدرك الصحابة أن هذا الذي يقول لنا الصدق دائما لا يمكن أن يكون ما يقوله الآن كذبًا. ورد في الحديث أن يهوديًا جاء النبي ﷺ مرة وقال: لي عليك دَيْن. فقال ﷺ: لقد دفعتُه لك. قال: إذا كنتَ قد دفعتَه لي فأين شاهدك؟ فقام صحابي وقال: يا رسول الله، واللهِ إني لشاهد على أنك قد دفعتَ لهذا ماله. فلما سمع اليهودي ذلك قال: نعم، لقد تذكرتُ الآن أنك دفعته لي. فلما ذهب اليهودي: قال النبي ﷺ لذلك الصحابي: كيف عرفتَ أنني قد دفعتُ له، مع أنك لم تشهد ذلك؟ فقال: يا رسول الله، دعْك من هذا. تُخبرنا بأخبار السماء فنصدقك، أفلا نصدقك حين تخبرنا بأخبار الأرض؟ فكما نؤمن بما تحدّثنا من أخبار السماء، كذلك نصدقك فيما تخبرنا من أخبار الأرض.

إن ما قاله هذا الصحابي حق وصدق، لأنه إذا قال المأمور والمرسل من عند الله تعالى قولاً فلا بد أن يكون حقا وصدقا. كيف يمكن أن يكون كذبًا؟ لذلك نجد أن الرسول ﷺ لم يلُمْ هذا الصحابي على قوله، بل سُرَّ به، وقال إن شهادته تساوي شهادة رجلين في المستقبل. لم يُعْطَ هذا الصحابي هذا الفضلَ على

الآخرين لأنه قال هذا الكلام بناء على الصداقة، بل إنه أسس قوله على شهادة كلام الله تعالى، وقال إن الذي يُنـــزل الله عليه كلامه يوميا لا يمكن أن يكذب في أمور تخصّ الأرض. وبالمثل فان الذي يُنـــزل الله عليه وحيًا قلبيًّا خفيًّا فإنه يمنحه شواهد أخرى أيضا لكي لا يقع الناس في خدعة في شأنه، بل يدركوا أن من كان صادقا فيما ادعى من الوحي من قبل لا بد أن يكون صادقا فيما يدعيه من تلقي هذا النوع من الوحي. أما الذي لا ينـــزل عليه الوحي اللفظي بكثرة، كما لا ينـــزل عليه وحي جبريل، ولا الوحي التصويري ولا التأويلي، فإنه إذا ادعى أنه يتلقى وحيًا قلبيا خفيا فلن يقبل العاقل دعواه، بل سيسميه الجميع مجنونا؛ إذ يسمي أفكار قلبه وحيًا.

باختصار، إن هذا النوع من الوحي فتنة عظيمة، ولذلك يجعله الله تعالى تابعًا للوحي اللفظي وللوحي النازل عن طريق الملائكة وغير الملائكة. فلو ادعى مَن نزل عليه الوحي بهذه الأنواع الثلاث بكثرة أنه يتلقى وحيًا قلبيا خفيا فلن يعتبره الناس مخدوعا، بل يصدقونه، أما إذا ادعى هذا النوع مِن الوحي مَن لا يتلقى أي نوع آخر من الوحي فلا بد أن يعتبره الجميع مجنونا. وهذا هو حال "بهاء الله" و"السيد غلام محمد" القاطن في لاهور؛ فإننا نعدّ هؤلاء دون المستوى العقلي المتوسط.

وثانيا: إن الوحي القلبي الخفي يتعلق بالأمور الغيبية لا بالأحكام، حتى لا ينخدع الناس، لأن الأمور الغيبية لا يكون فيها خطر الفتنة، إذ يمكن تأويلها فيما بعد، أما الأحكام فلا بد أن تكون واضحة، لا أن يُنتظر زمن لمعرفة تأويلها.

وليكنْ معلوما أن جميع أقسام الوحي تتضمن الحقيقة والمجاز أيضا، ولا تكون بالضرورة مشتملة على الحقيقة الواضحة فقط. فكما أن ما يراه المرء في المنام بحاجة إلى تأويل، كذلك ما يُنـــزل الله على العبد من كلام لفظي يتضمن المجاز والاستعارة أيضا. الفرق الوحيد أن ما يراه الإنسان في المنام يتطلب التأويل في معظم الأحيان، ولكن الوحي الذي ينـــزل في صورة كلام لفظي يتطلب التأويل

أحيانا. ولأن الناس لا يفهمون هذا الأمر فإننا عندما نذكر أمام غير الأحمديين تلك المفاهيم التي كانت مكنونة في آيات القرآن يقولون أنكم تؤولون كلام الله بدلاً من أن تذكروا ما تدل عليه ظاهر الكلمات. وليس سبب ذلك إلا أنه قد رسخ في أذهان هؤلاء أن تأويل كلام الله محال، ولا بد من الأخذ بظاهر كلماته، وإلا لارتفع الأمان.

والواقع أن قولهم خلاف للعقل تمامًا. ألا يوجد المجاز والاستعارة في كلامنا الذي نتحاور به في اليقظة؟ إننا نرى أن الكلام الذي يتحدث به الناس يكثر فيه المجاز والاستعارة، ومع ذلك لا يقول أحد أن المجاز في الكلام يرفع الأمان من الدنيا. اقرأْ شعر "غالب" و"ذوق"♦، لترى كثرة استعمال المجاز والاستعارة؟ فهل ارتفع الأمان بسبب ذلك؟ فما دام فحول الشعراء وكبار الأدباء يكثرون من المجاز والاستعارة في كلامهم، ولا أحد يعترض على ذلك قائلا قد ارتفع الأمان من الدنيا بسبب كلامهم، فهل يرتفع الأمان بورود المجاز والاستعارة في وحي الله تعالى فقط؟ إن قول هؤلاء المعترضين يعني أن كلام الله تعالى خالٍ حتى من المحاسن التي يجب أن يتسم بها كلام البشر. عندما يستعمل الله المجاز والاستعارة في كلامه يعترضون عليه، وحين يستعمله كبار الشعراء والأدباء في كلامهم يقولون في إعجاب: ما أفصحَ هذا الكلام! ولا يقولون إن كلامهم قد اشتبه علينا، أو أنه لم يبق له اعتبار لوجود المجاز والاستعارة فيه، أو أن لغتنا قد فسدت بسبب المجاز والاستعارة في كلامهم. كلا، بل يجدون المتعة بسماع كلام الشعراء ويشيدون ببلاغته ويفضّلونه على غيره من الكلام. لماذا يُعَدّ "غالب" أو "ذوق" أفضلَ من الآخرين؟ ليس سببه إلا أنهما يبيّنان الحقيقة في قالب المجاز والاستعارة. أفليس غريبًا أن ما يعتبرونه ميزة عظيمة في كلام البشر، يعتبرونه رفعًا للأمان إذا استعمله الله تعالى في كلامه. ما دام المجاز والاستعارة يكثُران في كلام البشر الذين يتحدثون به في اليقظة، فما الاعتراض على وجود المجاز والاستعارة في الوحي؟ المجاز والاستعارة

♦ هما من فحول الشعراء بالأردية. (المترجم)

روحُ البلاغة، فلماذا لا يستعملهما الله في وحيه إذا اقتضى الأمر؟ هناك وسائل تجنِّبُ من الخطأ في فهم كلام البشر المشتمل على المجاز والاستعارة، كذلك يوجد في كلام الله تعالى ما يجنِّب العاقلَ من الخطأ في فهمه. أما الأحمق فينخدع بأي شيء ولا يفهم الكلام الواضح الجلي. يقال أن شخصًا قال لأحمق: أخبرْني ما في هذه السلة، أُعْطِك إحدى البيضات الموجودة فيها؟ فقال الأحمق: كيف أُخبرك إذا لم تعطني بعض الإشارات المساعدة. عند استعمال المجاز لا بد من قرينة لفهم الكلام وإلا لارتفع الأمان. فمثلا لو قلتُ: إن فلانًا من الأموات جاءني وقال لي كذا وكذا، فلن يعتبره السامع حقيقةً بل مجازًا ويفهم أني رأيتُه في المنام. ولكني لو قلتُ عن شخص حي إنه جاءني وقال لي كذا وكذا، فمن الغباء أن يتخاصم السامعون لقولي فيقول بعضهم المراد أنه جاءه في المنام، ويقول الآخر: لا، إنما المراد أنه جاءه في اليقظة. ذلك أن هناك قرينة في قولي الأول وهي لفظُ "من الأموات"، فلا يمكن أن يأتيني إلا في المنام، أما في القول الثاني فليس هناك أي قرينة كهذه فيؤخذ قولي على الظاهر. فالمجاز والاستعارة لا بد له من قرائن تساعد على فهم ما إذا كان الكلام يؤخذ على ظاهره أم لا.

باختصار، رغم كثرة المجاز والاستعارة في كلام الناس، لا يشتبه الأمر على أحد، بل يجد الجميع متعة فيه لاعتبارهم الاستعارةَ والمجاز روحَ الفصاحة وذروتها. فكما أن المجاز والاستعارة يزيّن كلام البشر، فإنه يزيد على كلام الله تعالى جمالاً وعظمة، لذلك فمن الخطأ القول أن كلام الله تعالى مُنَــزَّه عن المجاز والاستعارة، أو أن المجاز والاستعارة يحول دون تبيان الحقيقة. هناك قواعد لمعرفة المجاز والاستعارة في كلام البشر وكلام الله تعالى، ولو فُسر الكلام بمراعاة هذه القواعد فلا بد أن يكون هذا التفسير صحيحا، أما إذا فُسِّرَ خلاف هذه القواعد فلا بد أن يكون التفسير خاطئا، فلا مجال للشبهة بسبب المجاز والاستعارة.

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

أشتاتا: متفرقين. (الأقرب)

التفسير: لقد اعتبر المفسرون أن هذه السورة تتحدث عن الآخرة، فقالوا المراد من الآية أنهم يخرجون بين مؤمن وكافر، وقيل: بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار، وقيل: بيض الوجوه آمنين، سود الوجوه فزعين (روح المعاني، والكشاف، وفتح البيان). ليس المراد من البيض الإنجليز ومن السودِ الهنود مثلاً، بل هو إشارة إلى قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾(آل عمران:١٠٧).. أي يوم القيامة سوف تكون بعض الوجوه مسرورة، وبعضها مكتئبة.. أي تكون بعضها فائزة، وبعضها مجرمةً –وبالمناسبة هذا الكلام أيضًا مجاز– إذًا فالمراد من ﴿أشتاتًا﴾ عندهم أصحاب اليمين وأصحاب الشمال.

ولكني أرى أن هذه السورة تتحدث عن الزمن الأخير الذي قُدِّرت فيه البعثة الثانية للنبي ﷺ، والمراد من هذه الآية أن الناس عندها سيصبحون أحزابًا، أي تتشكل عندها تجمعات ونقابات وجمعيات شتّى. وهذه العلامة لم توجد في أي عصر مضى، بل نجدها بارزة في العصر الراهن. في الماضي كانت الجهود فردية، ولم يكن فيها صفة الاتحاد والتحزب. في الماضي كان التاجر يعني شخصًا يأخذ بعض المال ويستثمره بالبيع والشراء في مدينته، والصانع نجارًا يصنع أشياء جيدة، والحداد شخصًا يعمل من الحديد أدوات نافعة، والعامل شخصا فقيرا يعمل عند غني على أجرة معينة. لا شك أن العامل في الماضي كان يتخاصم مع صاحب العمل أحيانا، ولكن كان جهده فرديا، وكذلك حال التاجر والصانع والحداد والأجير، فكل واحد منهم كان مهتما بشأنه ولم تكن تهمّه حقوق ومطالب الآخرين ممن يمارسون نفس المهنة التي يمارسها. ولكن القرآن يخبر هنا أن هذه الاختلافات بين العامل وصاحب العمل والأجير سوف تتفاقم حتى تؤدي إلى تشكيل أحزاب ونقابات وجمعيات.

﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾.. يعني لِيُرَوا نتائج أعمالهم، بمعنى ليعرفوا أن التحزب يؤدي إلى نتائج أفضل وبدونه لا تكون النتائج لصالحهم. في الماضي كان الأجير إذا تضايق من معاملة صاحب العمل قال له: أعطِني أجرتي لعملي حتى الآن ولن أعمل عندك بعدها، أما اليوم وجد العمال أن هذا الأسلوب لا يجديهم نفعًا ولا يؤثّر على أصحاب العمل، فقرّروا أن يتحدوا ويذهبوا إليه جميعًا لرفع مطالبهم وحقوقهم إليه، فشكّلوا نقابات لهم. فالآن إذا أرادوا رفع أجرتهم فلا يذهب كل واحد إلى صاحب العمل منفردا، بل يذهب إليه الجميع، ويقولون له بصوت واحد: يجب أن ترفع أجرتنا وإلا سنُضرِب عن العمل، فيضطر للرضوخ لمطالبهم. وهذا ما يخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾.. أي أن الجميع سيتحزب بدلاً من بذل الجهد بشكل فردي، لِيُريهم الله أعمالهم.. أي نتائجها. حيث إنهم يرون أن الجهود الفردية تضيع ولا تأتي بنتائج إيجابية، لذا فسوف يتوجهون إلى التحزب والاتحاد وتشكيل النقابات والجمعيات والجبهات المتحدة ليكون صوتهم قويًا ويضطر أصحاب العمل للقبول بمطالبهم.

وبالفعل نرى الناس اليوم أشتاتًا في شكل مئات الأحزاب في العالم، من محافظين، أحرار، عُمّال، ديمقراطيين، جمهوريين، أصوليين، نهلستيين، قوميين، اشتراكيين، نازيين، فاشيين، شيوعيين، فاسيين، فلانجيين، ومهاسبهايين، كونجروسيين، مُسْلِمْليغيين، يونينستيين، وَفْديين، سَعْديين، وما إلى ذلك. فكلهم يقولون لن تُقبَل مطالبنا إلا بالتحزّب. وهذا يخبر عنه الله تعالى بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾.. أي في ذلك العصر سيشكِّلون أحزابًا لهم لتحقيق مطالبهم.

لا شك أن هذه الأفكار كانت موجودة في الماضي، وأن ما نراه اليوم بين الطرفين كان موجودًا أيضًا، وكان كثير من العمال يشتكون من أصحاب العمل، فكانوا يهددونهم بالطرد من العمل، لكن شتان بين الماضي واليوم، إذ لم يكن في الماضي أية أحزاب، بينما تجد اليوم كل فئة قد شكّلتْ حزبًا ونقابة، فهناك نقابة للعمال ونقابة لأصحاب العمل، وجمعية لأصحاب القطارات وجمعية لعمالها،

ونقابة لعمال المناجم ونقابة لأصحابها، وحزب للسياسيين الحاكمين، وحزب للسياسيين المغلوبين. فنجد نقابات مقابل نقابات، وأحزابًا مقابل أحزاب. الجميع قد تحزّبوا، فلا تبذل الجهود اليوم بشكل فردي، بل تبذل من قبل الأحزاب نيابةً عن الأفراد. وهذا ما أخبر به الله بقوله ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾.. أي لن يبذل الناس جهودهم فُرادى، بل يبذلونها جماعاتٍ وأحزابًا، ليروا أحسن النتائج لأعمالهم ولكي لا تضيع جهودهم. علمًا أن الضمير (هم) في قوله تعالى ﴿أعمالهم﴾ راجع إلى أحزاب الناس ونقاباتهم المختلفة، فكل حزب ونقابة سيبذل جهودًا موحَّدةً من أجل حقوقه. فيبذل أعضاء حزب العمال جهودهم متكاتفين، وسيبذل أعضاء حزب الاشتراكيين جهودهم متحدين، وهذا ما سيفعله القوميون والشيوعيون وغيرهم، لتكون النتائج لصالحهم. وبالفعل رأينا اليوم آلاف الأحزاب قد تشكلت، ولا يبرح الناس يصرّحون في كتبهم أن سبب الفشل في الماضي أننا لم نكن معًا، أما الآن فسنعمل متكاتفين ونجعل صوتنا أكثر قوة ونتيجة.

وقول الله تعالى ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني: حسنًا، نحن أيضًا نريد أن لا تُبذَل الجهود في الزمن الأخير بشكل فردي، بل بشكل جماعي، لكي يتميز الخير عن الشر جيدًا. فقوله تعالى ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ إشارةٌ إلى بذل العباد جهودَهم لحقوقهم من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى تأييده تعالى لهم في ذلك، بمعنى: كما أنهم سيبذلون جهودهم بشكل جماعي في مجالاتهم وبأساليبهم، فإن الله تعالى أيضًا جهده. وكأن قول الله هذا مماثلٌ لقوله ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(آل عمران: ٥٥).. فأخبر الله تعالى أنهم سوف يفكّرون للعمل متحدين متكاتفين، ونحن بدورنا سنتيح لهم الفرصة لتحقيق مقاصدهم، لكي لا يبقى في قلوبهم أي حسرة بأنهم لن يستطيعوا بذل كل ما في وسعهم بشكل جماعي، وتكون النتيجة في نهاية المطاف أنهم سيضطرون للاعتراف أن القانون الأفضل ليس إلا ما يسنّه الله تعالى، وأن الحزب الأفضل ليس إلا ما يشكّله ﷻ.

في زمن النبي ﷺ قام أبو جهل ضده، ولكن فشلت جهوده ومكائده كلها، ومات خائبا خاسرا في النهاية، لقد كان هذا آيةً عظيمة دلت على صدق رسول الله ﷺ كالشمس في كبد السماء، ولكنها كانت مواجهة فردية لا جماعية، وإنما بدأت المواجهة الجماعية بعد الهجرة، حيث كُسرتْ قوة الكفار العرب كلهم. وبالمثل قد واجه المسيح الموعود عليه السلام معارضة شديدة، لكن الجهود كانت تُبذل ضده بشكل فردي، إذ كان كل من الشيخ البطالوي والمولوي ثناء الله الأمرتسري والمولوي نذير حسين وغيرهم يعارضه بشكل فردي. لا شك أن كل السهام كانت موجهة إلى حضرته عليه السلام طبقاً للمثل القائل: "الكفر ملة واحدة"، لكن لم تكن هذه المواجهة جبهةً موحدة، بل كان كل خصم يعاديه من مدينته منفردا، فكان المولوي البطالوي يعارضه من "بَطالة" بأسلوبه، والمولوي نذير حسين يعارضه من "دهلي" بأسلوبه، والمولوي ثناء الله من "أمرتسر" بأسلوبه. ولكن كان من المقدر أن تتحقق نبوءة ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ في هذا العصر، فانبرت جماعة "الأحرار" ضد جماعتنا في عام ١٩٣٤م، وأعلنوا أنهم سيسحقون الأحمدية سحقا. ولقد قالوا إن الناس كانوا يعارضون الأحمدية من قبل بشكل فردي من مدن شتى مثل "لدهيانة" و"لاهور" و"دهلي" و"بطالة" و"أمرتسر"، أما الآن فسوف نقضي على الأحمدية متّحدين (تاريخ أحرار، ص ١٢٦). فاتحد حزب الكونجرس الهندوسي مع "الأحرار"، كما تواطأت معهم الحكومة لمصلحة ما. لقد كانت هذه المعارضة تحقيقا لقوله تعالى﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لقد تبينّ أن فضل الله وحمايته مع الأحمدية. وفي هذه الأيام يُطِلُّ الشيعة علينا بمعارضتهم ظانين مثل الأحرار أنهم سوف يقضون على الأحمدية، وتحولت المعارضة الفردية إلى معارضة جماعية، وتمرّ جماعتنا بمرحلة خطيرة في سبيل نضالها.

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٩﴾

التفسير: يخبر الله تعالى هنا أن عمل الناس متحدين سوف يحقق صدق سنّتنا بأنّ مَن عمل ذرةَ خير متّحدًا مع الآخرين رأى نتيجته، وأن مَن عمل ذرة شرّ متحدا مع الآخرين رأى نتيجته. أي أن كل شخص في الزمن الأخير سيعمل تحت مظلة حزبه، فتكون نتيجة كل عمل كبيرة وبارزة؛ لأن كل ذرة في العمل المشترك تجتمع مع الذرات الأخرى وتصبح جبلاً، فإذا كانت ذرات العمل الفردي لا تساوي شيئا بل يأخذها الهواء وتختفي بدون أن تأتي بنتيجة ملموسة، فإن ذرة العمل الذي يتم مع الجماعة لا يمكن أن تختفي، بل تصبح جبلا مع ذرات الآخرين. فلأن الناس سيعملون في صورة أحزاب وتجمعات في ذلك العصر، فلن تضيع ذرة من عملهم، فتكون نتيجة كل عمل كبيرة بارزة.

الحق أن هذا الموضوع تسلسل للموضوع المذكور في ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾، حيث بين الله تعالى هنا سبب صدور الناس أشتاتًا، فأخبر أن تصرُّفهم هذا سوف يؤكد صدق قولنا إن الإنسان لا بد أن يرى نتيجة كل عمل من أعماله مهما صغُر، سواء كان عمله شرا أو خيرا. ذلك أننا لو طبقنا هذه الآية على أعمال الخير الفردية وأعمال الشر الفردية لم يكن لهذه الآية أي معنى. لا شك أنه فيما يتعلق بالقيامة فكل عمل خير لكل إنسان وكل عمل شر لكل إنسان سيصبح بارزًا يوم القيامة، نحن لا ننكر ذلك، لكن هذا لا يحدث في هذا الدنيا. فإننا نرى هنا أن بعض الناس يعملون عمل خير عظيم، لكنه يظل خفيا، وكذلك يعمل البعض عملا شريرا كبيرا، ولكنه يظل خفيا أيضا. لو كان كل عمل خير أو شرّ بارزًا في الدنيا لما تجاسر الناس على الآثام. كثير منهم يقومون بأعمال خير كبيرة، ولكنها – لكونها فردية – لا تأتي بنتيجة تحثّ الناس على فعل الخير، وكذلك ملايين الناس يعملون أعمال الشر ولكن شرهم –لكونه شرًا فرديا– لا يأتي بنتيجة ملحوظة

تُرعب الناسَ وتجعلهم يرتدعون عن أعمال الشر للأبد. لكن الله تعالى يخبر هنا أننا نتحدث عن زمن يجمع فيه أهلُ الخير كلّ ذرة من أعمالهم الخيرة في مكان واحد، ويجمع أهل الشر كل ذرة من أعمالهم الشريرة في مكان واحد، فتصبح أعمال الخير جبلاً، وأعمال الشر جبلا.

وكأن هذه الآية إشارة إلى المواجهة التي تتم عندها بين نظامَي الكفر والإسلام، فمن جهة يجمع الكفر كل جنوده ويقيم نظاما، ومن جهة أخرى يجمع الإسلام كل الذين يعملون الخير لإحياء الإسلام وتقويته ويقيم نظاما، ثم يصطدم النظامان للقضاء على الآخر. هذه هي النبوءة المذكورة هنا. والتدبر يكشف أنها لم تتحقق في الماضي قط، فلا الكفر أقام نظامًا موحدا لمواجهة الإسلام بشكل جماعي، ولا الإسلام أقام نظاما موحدا للقضاء على الكفر. في زمن النبي ﷺ كلما مست به الحاجة إلى المال جمع صحابتَه ودعاهم إلى التبرع، فكان كل واحد منهم يقدم ما يستطيع لهذه الخدمة (الترمذي: أبواب المناقب)، ولا نرى أن النبي ﷺ أقام بيتًا للمال أو نظامًا لجمع التبرعات من كل فرد من جماعة الإسلام. ولكننا نرى في هذا الزمن أن المسيح الموعود عليه السلام قد فتح منذ بداية دعواه خمسة صناديق للتبرعات فصّلها في كتابه "فتح الإسلام"، وأوصى القوم أن يبعثوا الأموال إلى هذه الصناديق من أجل إحياء الإسلام ورُقيّه (فتح الإسلام، الخزائن الروحانية المجلد ٣ ص ١٢-٢٥). وهذا يعني أنه عليه السلام قد أسس منذ بداية بعثته نظامًا ثم رفعه شيئا فشيئا على أسس متينة حتى قال: "مَن توقفَ عن إرسال المال لمدة ثلاثة أشهر لنصرة الجماعة فليس منا". (مجموعة "اشتهارات" المجلد الثالث ص ٤٦٩)

باختصار، قد أقام الله تعالى في هذا العصر نظاما لإحياء الإسلام، ومن جانب آخر جمع الكفرُ جنوده وقواته كلها ووضع خطته لسحق الإسلام. فاليوم لا تقوم المسيحية أو فِرقة الآرياسماج الهندوسية أو السيخ أو اليهودية بتبليغ فردي، بل هناك جمعيات ضخمة عندهم تجمع ملايين الملايين لتنفق على تبليغ ديانتهم. ولذلك يخبر الله تعالى هنا أنه إذا جاء الزمن الأخير الذي قدّرنا فيه البعثةَ الثانية

لرسولنا الكريم (ﷺ)، سنقول لأهل الخير أن يتّحدوا، كما نقول للملائكة أن يحثّوا أهل الشر على الاتحاد، وهكذا يقع صدام كبير بين الكفر والإسلام يُسفِر عن انتصار الإسلام في نهاية المطاف، وسوف نفعل ذلك لكي لا يقول الناس إنهم ظلوا غافلين لم تُتَحْ لهم الفرصة لتحقيق أمانيهم متحدين متكاتفين، وإلا لما تركوا الإسلام يظهر أبدا. فكأن الله تعالى يقول نحن لا نريد أن تبقى في قلب الكفر أية حسرة، بل نتيح لأهله الفرصة ليُخرجوا كل ما في جعبتهم حتى لا يقول الكفر إنه لو أتيحت لي الفرصة للإعداد والتجهيز الكامل لم أدَعْ الإسلام ينتشر في الدنيا. كلا، بل سنتيح الفرصة الكاملة للطرفين، فلا يبقى أهل الشر غافلين عن أعمالهم وخططهم، بل سيدركون تماما الغاية التي خرجوا من أجلها، كما سيكون أهل الخير مدركين لما عليهم من أعمال وواجبات، ولذلك ستكون نتيجة هذه المواجهة بين الكفر والإسلام قطعية وأخيرة، ولن يقول الشر بعدها أنه لن تتح له الفرصة الكافية لمحاربة الخير.

ذكرت هذا المعنى فيما يتعلق بالدين، أما لو توجّهنا إلى العالم المادي لرأينا المشهد نفسه، إذ لا نجد في الماضي نظيرا للثورة التي حصلت اليوم في الدنيا عبر مختلف الأحزاب والنقابات. إن الظالمين قد وُجدوا في كل عصر، وكان أهل كل عصر يشتكون منهم. لقد وجد في الماضي أيضًا أُجَراء قتلوا أسيادهم، فهناك آلاف الحالات لقتل الخادمِ سيدَه الذي سبّه وأهانه، فاستاء منه فقتله نائمًا، لكن لم يكن لمثل هذه الأحداث الفردية أثر بعيد المدى، وإنما كان الناس يقولون إن فلانا قتله خادمه، ثم يسكتون. لم تكن الدنيا ترى أي نتيجة لهذا الحادث، إذ كان يختفي بين دوامة الأحداث الأخرى. أما اليوم فلما رفع الشيوعيون رأسهم في روسيا اجتمعوا وقتلوا أصحاب الأعمال، فكانت النتيجة عظيمة حيث تغيّرَ النظام الحاكم. في الماضي كان الأجير إذا استاء من صاحب العمل ترك العمل من دون أن يعرف أحد بذلك أو يحصل أي تغيّرٌ في المجتمع، أما اليوم فإن إضرابات العمال قد أخضعتْ رقاب أصحاب العمل بشكل مخزٍ.

هذا هو حال الربا أيضا، إذ لم يزل الناس عبر القرون يتعاملون بالربا، ولكن نظام البنوك قد أحكمَ قبضته على رقاب الناس بما لا قبل لهم به. في الماضي كان المرابي الهندوسي يتعامل مع الناس بالربا في قرية نائية، ولم يكن أحد يعلم ذلك، أما اليوم فقد كثرت البنوك وفروعها، فنشرتْ شبكتها في العالم كله وسيطرت على الناس. في الماضي كان الناس يمارسون الصنعة والحرفة، أما اليوم فقد قضت الشركات على صناعة البلاد وحِرَفها، بحيث أصبح أصحاب الحِرَف المساكين في حيرة من أمرهم. في الماضي كان هناك تجار عاديون، أما اليوم فقد تشكلت شركات للتجارة. في الماضي إذا كان في الدنيا تاجر كبير فلم يكن الناس يعرفون عنه شيئًا وما كان يستطيع نـــزع الثروة من جيوبهم بكثرة، أما اليوم فإن هذه الشركات تنـــزع الأموال من الناس نزعًا، حتى اضطر كبار الأثرياء أن يتوظفوا في هذه الشركات بدلاً من أن يعملوا عند الحكومة. كان اللورد "موند" وزير المالية في إنجلترا، لكنه استقال وتوظف عند شركة (امبريال كيميكال اندستري). وكان هناك شخص آخر شهير اسمه –على الأغلب– السير "كينار" وكان وزيرا للخارجية، لكنه ترك وزارته وتوظف في شركة القطارات. كان يتقاضى في وزارته خمسمائة جنيه، أما شركة القطارات فتدفع له ثلاثين ألف جنيه، وهذا يعني أن راتبه تضاعف أضعافا كثيرة. فالشركات قد استولت على الثروة من خلال التجارة والصناعة والحرفة لدرجة أنها تدفع لموظف لها ما لم يكن يملكه أي صانع أو تاجر كبير في الماضي.

ثم تطورت الشركات إلى ما يسمى بالإنجليزية (trust system) (أي اتحاد الشركات من بلد واحد)، ثم إلى ما يسمى بالإنجليزية (cartel system) (أي اتحاد كبار التجار أو الشركات من بلدان عديدة). وهكذا قد خرج الناس أشتاتًا – أي أحزابًا مقابل أحزاب ونقابات– بما لا يوجد له نظير في الماضي، ومن خلال العمل الجماعي قاموا بتطوير كلّ الأعمال بشكل مدهش، فإذا عملت هذه الأحزاب عمل خير كانت النتيجة مدهشة، وإذا عملتْ عمل الشر كانت النتيجة مرعبة تنخلع من هولها القلوب. فالآية تشير إلى أن المؤمنين أيضًا سيعملون في الزمن الأخير معًا،

فتكون نتائج أعمالهم أيضا عظيمة، ولأن جزاء الخير بعشرة أمثاله، فتكون نتائج الخير غالبة على نتائج الشرّ.

هذا المعنى قد بينتُه نظرًا إلى ترتيب الآيات. غير أن هذه الآية بالغة الأهمية في حد ذاتها، فذات مرة سئل النبي ﷺ عن الثواب في تربية الحمير، فَقَالَ: لَمْ يُنْزَلْ عَلَيَّ فِيهَا شَيْءٌ إلا هَذِهِ الآيَةُ الْجَامِعَةُ الْفَاذَّةُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (البخاري، كتاب التفسير).. أي ليس هناك شيء يتعلق بجزاء الخير والشر إلا وقد احتوته هذه السورة.

يكشف لنا التدبر أن الإنسان يفعل كثيرًا من أعمال الخير والشر، ولكنها كلها تظل خافية على الآخرين. فمن الحقائق الثابتة أن كثيرا من الناس يفكرون ضد الآخرين بسوء، لكن لا تكون لذلك أي نتيجة، كما لا يدري الطرف الآخر أن فلانا يفكِّر به سوءا. ولذلك قال الرسول ﷺ مرة إن أحدا إذا سمع غيره يغتاب صاحبه، فذهب وأخبره بما قاله الأول بحقه، فمَثَلُه كمَثَل مَن أطلق سهمًا إلى غيره فسقَط في الطريق، فأخذه الآخر وغرزه في صدره. وكذلك هناك كثير من الناس الذين يفكرون في الآخرين خيرا، ويحبونهم وتفيض قلوبهم بمشاعر العطف والحب نحوهم، بينما لا يعرف الطرف الآخر عن ذلك شيئًا. فالمرء يكنّ لصاحبه حبًّا شديدًا، ولكن حيث إن هذا الحب يكون خفيًا في قلبه، فلا يعرف الآخر أن هناك صديقا له يحبّه ويريد أن يكون معه في ساعة العسرة. وقد يكون هناك صديقان مخلصان يساعد أحدهما الآخر عند المصائب دائما، ولكن مع ذلك لا يعرف أحدهما مدى مشاعر الآخر كل العرفان، فأحدهما يستيقظ بالليل ويدعو الله تعالى للآخر باكيا مبتهلا، بينما لا يعرف صديقه أنه ظل يدعو له الله تعالى ساجدًا طارقًا باب رحمة الله من أجله، في حين كان الناس ينامون في هذه الليلة المظلمة.

فثبت أن كثيرا من أعمال الخير والشر تظل خافية عن أعين الناس، لكن الله تعالى يقول ليس الأمر هكذا بالنسبة لنا، بل إننا نعلم كل ذرة من الخير وكل ذرة من الشر، فلا يضيع عندنا شيء ولا يخفى عنا شيء، مهما كان بسيطا وضئيلا. فلا تظنوا أن أعمال الخير أو الشر تخفى علينا كما تخفى على الناس، كلا، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. كثيرًا ما تغيب عن الناس جبالٌ من خيركم وجبالٌ من شركم، ولكن لا يخفى على الله تعالى من أعمالكم شيء. تقع في الدنيا أحداث كثيرة دون أن يطّلع عليها أهلها، فبعض الناس يقتلون الآخرين بتسميم طعامهم، ولا يعرفهم الناس ولو بحثوا كثيرا. فهناك كثير من القتلة الذين لا يُعثر على أي أثر لهم، ولا يعرف الناس أين غابوا. فأحيانًا يقتل الرجل أحد المارة في البرية أو الغابة من دون أن يعرف الآخرون. وقد يقتل المرء شخصًا ثم يصبح صديقا لابن المقتول ويأكل ويشرب معه في إناء واحد حتى يفديه ابنُ المقتول لأنه لا يعلم أن هذا قاتل أبيه. فكل يوم نسمع أن شخصًا ألقى على الآخر جبلاً من شرّه ثم اختفى دون أن يعرف المظلوم من الظالم.

فحيث إن كثيرا من أعمال الخير وأعمال الشر لا تظهر للعيان في الدنيا، فكان لزاما أن يكون هناك مَن يعلم كل عمل للإنسان، مهما صَغُر، ويجزيه عليه، لكي لا يقول صاحب الخير إن كذا وكذا من خيره قد ضاع، ولكي لا يغترّ صاحب الشرّ بأنه قد ارتكب كذا وكذا من الشر ولكنه لم يذُقْ وباله. لا شك أن كثيرا من أعمال الخير وأعمال الشر تظهر في العالم، خاصة العظيمة منها، فإنها لا تخفى عادة بل يطلع عليها الناس حتمًا، ولكن هناك آلاف الحسنات وآلاف السيئات التي تظل في الخفاء. فمثلاً إذا تولدتْ في قلبك فكرة الخير فهي في حد ذاتها عملُ خير، وإذا تولدت في قلبك فكرة شريرة فهي عملُ شر، ولكن من ذا الذي يشق قلبك حتى يرى ما تولد فيه من خير أو شر. ولكن ما دام هناك الإله الحي العليم الخبير فلا يمكن أن يخاف أحد بأن خيره سيبقى خفيًا، أو أن شره سيبقى في الخفاء. ذلك أن الله تعالى يراقب الإنسان كل حين، ولا يدَعُ عمله يضيع مهما كان ضئيلا.

ثم لو نظرنا إلى أعمال الإنسان لوجدنا أن معظمها لا تكون كبيرة، بل تكون صغيرة. فقليل هم الذين يوفَّقون للعمل الكبير، أما الآخرون فيقضون أعمارهم كلها بدون أن ينجزوا أي عمل كبير، فلا يطلع الناس على أحوالهم. إنهم يعيشون بعيدا عن أعين الناس مستورين، ويموتون مستورين. مَثَلهم كمثل الأعشاب الصغيرة

التي تنبت على قمم الجبال الشاهقة، وتموت هناك من دون أن ينتفع منها أحد أو يتوجه إليها أحد. فلولا أن هناك إلهًا مطّلعًا على أسرار قلوب الناس، لا تخفى عليه خافية من أعمالهم مهما صغرت، ويجزيهم عليها حتمًا، لمات الذين يقضون أعمارهم من دون أن ينجزوا عملا عظيما وهم أحياء. هذه هي الحكمة في أن الإسلام بشَّر الإنسانية أن هناك إلهًا لهذا الكون، يرى كل أعمال الإنسان مهما صغرت، فإذا عمل خيرًا علِمه، وإذا عمل شرًا علِمه أيضا، فلا تظنوا أن أعمالكم تضيع ولن تظهر لها نتيجة. إذا كانت أعمالكم خفية عن أعين الناس فلا تحزنوا، لأن في السماء إلهًا حيًّا مطّلعًا على أصغر أعمالكم كأكبر أعمالكم، ويجزيكم على حسناتكم كلها.

إذن، فهذه الآية تقلب الحياة الإنسانية رأسًا على عقب، وتغمر القلوب بالطموح والحماس والصحوة مجدَّدا. فلولا هذه الآية لظن معظم الناس أن لا وارث لهم، إذ لا يكون خيرهم عظيمًا ولا شرهم كبيرا. لو بحثت عن القَتلة بين سكان المعمورة البالغ عددهم مليارًا لم تجد بينهم أكثر من مئة ألف أو مئتي ألف قاتل، ولرأيت أن الناس لا يعرفون مِن أهل الشر إلا القليل، مع أن الشر يصدر من مئات الآلاف من الناس بالإضافة إلى القَتلة وقطاع الطرق واللصوص المعروفين، وليس ذلك إلا لأن شرهم يظلّ خفيا عن الآخرين. إن القاتل المعروف يقتل شخصا أو شخصين في حياته، ولكن هناك شخص آخر يظهر منه الشر دائما، فإنه إذا رأى أحدا في لباس جميل احترق قلبه حسدا، وإذا رأى أحدًا يأكل طعاما لذيذا تمنى أن يغصّه، وإذا رأى أحدا في راحة ورخاء احترق كمدًا وقال لماذا لا يموت هذا الشقي، ولماذا لا يمرض ويعاني؟ فكل يوم يظهر منه شر، ولكن لا تطّلع الدنيا على شره، فيقضي عمره كله في هذه الحالة. وعلى النقيض كم من شخص لا يملك الملايين لينشئ جامعة كجامعة أكسفورد مثلا، أو أي معهد علمي، بل لا يملك بضعة قروش لينفقها في سبيل الله، ولكنه لا يزال يدعو في قلبه كل يوم: رب ارحمْ الدنيا ونَجِّها من البلايا، ربّ نجّ الناس من الكروب والآلام، وافتح عليهم باب فضلك. فلا يزال أمثال هؤلاء يرددون هذه الأدعية في حياتهم، ثم يغادرون الدنيا

مرددين إياها من دون أن يعرف أحد ما صدر منهم من خير كثير. فلولا أن حساب الناس بيد الله تعالى لماتوا كلهم دون جزاء كما تموت الأعشاب في قمم الجبال بعد أن ترى الربيع بضعة أيام، ولضاعت أعمال خيرهم وأعمال شرهم أيضا، فلم تنفعهم حسناتهم ولم يذوقوا وبال شرورهم، ولظن الصالحون ألا وارث لهم، ولازداد الأشرار تمردًا وطغيانا ظانين أن لا يقدر عليهم أحد، فلهم أن يفعلوا ما شاءوا. لكن الله تعالى يعلن هنا أنكم على خطأ إذا كنتم تفكرون هكذا، كلا، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. فهناك إلهٌ خالق للعالم كله، ولا تخفى عليه ذرة من خير يعمله أحد. فأيها الإنسان الضعيف المريض، وأيها الأعرج الكسيح، وأيها الفقير المسكين، لا تحزن، لأن في السماء ربًّا يراك، فلا يخفى عليه عمل من أعمالك. يا أيها الإنسان الضعيف العديم الحيلة الذي لا يقدر على مساعدة أحد، ويا أيها الإنسان الأعرج الكسيح الذي لا يقدر على الصلاة واقفًا، ويا أيها المريض النحيف الذي لا يقدر على المشي حتى يقوم بخدمة الدين.. إن قلبك يحزن بأن الآخرين قد ذهبوا بالخيرات، وبقيت محروما منها، ولكن لا تحزنْ، لأن كل خير يصدر منك مهما صغر وكل فكرة خير تتولد في قلبك مهما ضؤلت، يساوي عند الله تعالى أكبر أعمال الخير التي يقوم بها الآخرون. لا شك أنك حين تُنفق قرشًا أو قرشين لخدمة الدين يضحك عليك الناس بحقارة، وعندما تُقدِّم كسرة من الخبز في سبيلنا يقول الناس مستهزئين: ما فائدة هذه الكسرة؟ ولكن لا تحزن، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، فمهما كان عملك ضئيلاً حقيرًا، ومهما كانت جهودك بسيطة، ومهما كنتَ عديمَ الحيلة، ومهما اعتبرت الدنيا أعمالَك حقيرة، ومهما قصّرت الدنيا في تقدير خيرك، إلا أن الله يرى ما عملْتَ من خير، وسيريك نتائج أعمالك يوما ما.

ومن ناحية أخرى إن هذه الآيات تحذِّر صاحب الشر وتقول له: أيها الإنسان الشرير، تعمل الشر في الخفاء، فلا تُعَدّ من السارقين ولا اللصوص، كما لا تراك الدنيا حين تعمل الشر، لكننا نراك وسوف نذيقك وبال أمرك في يوم من الأيام.

باختصار، إن هذه الآيات تقدّم مبدأ عظيما لجزاء الخير والشر لو استوعبه الإنسان حق الاستيعاب لتولد في قلبه الحماس الصحيح لفعل الخير وتجنُّبِ الشرّ.

يقول البعض في: هذا يعني أنه ليس هناك جنة ولا جهنم. فما دام الإنسان سيرى جزاء شروره كلها حتمًا، فما معنى التوبة والغفران؟ وإذا كان سيُجزى على كل خير من خيراته فكيف يُلقى الناس في النار؟ فكأن هاتين الآيتين هما بمثابة سيف ذي حدين، أحدهما يلغي الجنة والآخر يلغي النار، فقوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ينفي وجود النار، وقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ينفي وجود الجنة.

والجواب لا شك أن أي عمل يعمله الإنسان لا يضيع أبدًا، ولكن مما لا شك فيه أيضا أنه كما يتحاسب الناس فيما بينهم بالأخذ والطرح، كذلك يتم الحساب عند الله تعالى. لنفترضْ أن بكرًا أخذ من زيد ألف روبية، ولكنه قد سبق أن أعطى زيدًا ألفي روبية، ومن الواضح أنه عندما يتم الحساب بينهما فإن زيدًا سيدفع لبكر ألف روبية أخرى وينتهي الحساب. فهل يمكن أن يقال في هذه الحالة أن ألف روبية لزيد قد ضاعت؟ كلا، بل إنها نفعته، إذ طُرحتْ من ألفي روبية كان عليه أن يدفعها لبكر. وهذا هو حال الحساب فيما يتعلق بالحسنات والسيئات. قال الله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾(هود:١١٥).. أي أقم الصلاة في الصباح والمساء وكذلك على طرفَي الليل، بمعنى عليكم أن تعبدوا الله تعالى عند كل تغير وانقلاب، فإذا أقبل النهار اعبدوه، وإذا أدبر فاعبدوه، وإذا أقبل الليل فاعبدوه، وإذا أدبر فاعبدوه. ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾.. أي أن كل تغيُّر يترك تأثيرا، خيرًا أو شرًّا، فإذا عبدتم الله عند كل تغيّر وأنَبْتُم إليه انتفعتم، لأنه إذا كان تغيُّرَ شرٍّ نجوتم من الشر بعبادتكم، وإذا كان تغيّرَ خيرٍ ازددتم بعبادتكم خيرًا، وانتفعتم في الحالتين. عندما يقبل النهار فإما أنه يأتيكم بخير أو بشرّ، وكذلك إذا أدبر النهار فإما أنه يُخلِف لكم خيرا أو شرا، وكذلك حالُ إقبال الليل وإدباره، فلو عبدتم الله تعالى عند كل هذه التغيرات، سوف يزول ما فيها من شرّ ببركة صلواتكم وعباداتكم

وابتهالاتكم، لأنّ من سنة الله أن الحسنات يذهبن السيئات وأن الخير يزيل الشر. باختصار، يأمرنا الله تعالى أنه إذا ظهر منكم شر أو كان هناك خطر لظهور شر ضدكم، فافعلوا الخير فورًا، ليزول عنكم الشر ولا تروا عاقبته الوخيمة.

ثم يقول الله تعالى ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾.. أي هذه وَصْفَةٌ قد وصفناها لكم، فإذا أردتم تقوية أنفسكم دائمًا، فاعبدوا الله عند إقبال الليل والنهار وإدبارهما، فيزول الشرّ الذي يأتي به هذا التغير، أو تزدادوا خيرًا بسبب ما يكون في هذا التغير من خير.

وقال الله تعالى أيضا: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾(القارعة:٧-١٢). علمًا أن القرآن الكريم يرى أن الوزن يكون للخير لا للسيئة، وقد وقع الناس في أخطاء كبيرة لعدم فهم هذه القضية، فقوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ يعني: أما من زادت حسناته على سيئاته، وأزالت حسناتُه سيئاته، فهو في عيشة راضية، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾.. أي أن الذي قلّت موازينه، أي لم يبق له حسنات، ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾.. أي أنه يُلقى في الجحيم.

وقال الله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾(الأعراف: ٩-١٠).

فالتدبر في هذه الآيات يكشف بطلان الاعتراض القائل بأنه ما دام كل إنسان سيرى جزاء كل سيئاته، فما معنى التوبة والغفران؟ وأنه ما دام كل إنسان سيرى جزاء كل حسناته، فما معنى دخوله في النار؟ الواقع أن الإنسان سيرى يوم القيامة كل خير عمِلَه، وكذلك كل شر فعله، وستتم المقارنة بين خيره وشره، فإذا زاد خيره قضى على شره، وإذا زاد شره قضى على خيره، وطُرح ما قيمته أقلُّ مما قيمتُه أكبر. وأضربُ لتوضيح الأمر مثالاً. هناك شخص عَمِلَ عشرةَ آلاف خيرٍ وألفَ شرٍ، وشخصٌ آخرُ عَمِلَ عشرةَ آلافِ خيرٍ وخمسمائةِ شرٍ، وثالثٌ عَمِلَ عشرةَ آلاف خيرٍ ومئتَي شرٍ، ورابعٌ عَمِلَ عشرةَ آلاف خير ولم يعمل أيَّ شر. فلا بد أن

يكون الشخص الرابع في المقام الأول، والثالثُ في المقام الثاني، ثم الثاني في المقام الثالث، والأول في المقام الرابع. لا شك أن هؤلاء جميعًا سيدخلون الجنة، لكن لا يمكن إنكار أن كلا منهم قد رأى شرّه، لأن الذي عمل ألفَ سيئة لم يبلغ درجةَ مَن عمل خمسمائة سيئة، وأن مَن عمل خمسمائة سيئة لم يبلغ درجة من عمل مئتي سيئة. ومن عمل مئتي سيئة لم يبلغ درجة من لم يعمل أي سيئة. لا شك أن هناك سببًا وراء بلوغ محمد ﷺ مقامه الأعظم ووصولِ أبي بكر مقامه الذي وصله، ونيلِ عمر مقامه الذي ناله، وبلوغِ عامة المؤمنين المقام المقدَّر لهم. إنما السبب أن محمدا ﷺ لم يعمل أي شرّ أو سوء، فبلغ منتهى الدرجات، أما أبو بكر فحصلت منه بعض التقصيرات، فلم يبلغ المقام الذي بلغه محمد ﷺ، فكأن أبا بكر رأى شرّه، ثم إن عمر لم يبلغ مقام أبي بكر، وهكذا فكأنما عمر رأى شرًّا عَمِلَه. وكذلك كل مؤمن يدخل الجنة لن يكون بمقام أبي بكر أو بمقام عمر، وهكذا سيرى شرًا فعله، إذ يُنقَص من أعمال خيره بقدر الشر الذي عَمِلَه. وهذا هو مفهوم رؤية كل إنسان شرًّا عَمِلَه.

يضحك المسيحيون علينا قائلين: يبدو أن إله الإسلام قد فتَح دفترًا للحساب؟

الواقع أن الأمن مستحيل بدون ذلك. فلو سألنا النصارى: هل يكون جميع المؤمنين على المقام الذي يكون فيه المسيح عليه السلام يوم القيامة؟ فلا بد أن يقولوا: كلا، سوف يبوئ الله تعالى المسيحَ درجةً تفوق درجة المؤمنين كثيرًا. فما دام النصارى يعتقدون بذلك فكيف يعترضون على الإسلام ويقولون يبدو أن إله الإسلام قد فتح دفترًا للحساب؟

وكذلك قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾(الأنعام:١٦١). هذه الآية قد دفعت المخاوف التي يمكن أن يشعر بها المؤمن بقراءة قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.. بأنه ما دام سيرى جزاء كل سيئة ارتكبها فكيف يُغفر له؟ فقد بيّن الله تعالى هنا أن قانوننا بصدد الأعمال هو أن الحسنة تزداد دائمًا ويُجزى صاحبُها عشرةَ أضعافها، أما السيئة فلا يمكن أن تزداد إلى عشرة أضعاف أو عشرين ضعفًا،

بل لن يجزى عليها إلا مثلها، فإذا كنتم تخافون من رؤية شر ارتكبتموه، فالعلاج أن تبذروا بذرة الخير، ولسوف تنمو وتزدهر حتى يصبح كل خير عشرة أضعافه، أما بذرة الشر فلن تنمو أبدًا، وهكذا تزداد حسناتكم وتتسبّب في غفران ذنوبكم بفضل الله تعالى.

يتضح من القرآن الكريم أن مثل الخير والشر كمثل بذرة صالحة وبذرة رديئة (الأعراف:٥٩). ومعلوم أن البذرة الصالحة هي التي تنبت وتنمو وتصبح مئات البذر، أما الفاسدة فلن تنمو ولن تنبت منها بذور أخرى، بل ستظلّ محدودة في ذاتها. فمثلاً إذا غرست نواة رديئة من المانجو فلن تنبت أي مانجو، لكن إذا غرستَ نواة صالحة من المانجو فسوف تنبت وتؤتي ثمرًا جيدا كثيرًا. هذا هو حال الحسنة والسيئة، فالحسنة تنمو وتزدهر وتكثر، أما السيئة فتظل محدودة في ذاتها، فإذا أردتم ألا تحول سيئاتكم دون نجاتكم، فعليكم أن تُكثروا من الحسنات.

وكذلك قال الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾(الشورى:٢٦).

وكذلك قال الله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾(الشورى:٣١). فمن سنة الله تعالى أنه يغض الطرف عن معظم السيئات.

بهذه الآيات قد بطل الاعتراض القائل أنه إذا كان الإنسان سيجزى على كل خير وعلى كل شرّ، فما معنى الجنة والجحيم؟ ما دمنا سنرى جزاء كل خير، فقد انتفت الجحيم، وإذا كنا سنرى جزاء كل سيئة فقد انتفت الجنة. فالله تعالى قد بين هنا أن الجنة والجحيم ستبقيان في مكانهما رغم أن الإنسان سيجزى على كل خير وكل شر، فمن كثرت سيئاته أُلقي في النار، ومن كثرت حسناته أُدخل الجنة. بتعبير آخر: مَن أكلتْ كثرةُ سيئاته حسناتِه دخل النار، ومن أكلتْ كثرةُ حسناته سيئاتِه دخل الجنة. إذًا فستبقى الجنة والجحيم في مكانهما.

كذلك ورد في الحديث عن أنس قال: كان أبو بكر ﷺ يأكل مع النبي ﷺ، فنـــزلت هذه الآية ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَرَهُ﴾، فرفع أبو بكر يده من الطعام، وقال: يا رسول الله، إني أُجزَى بما عملتُ من مثقال ذرة مِن شرّ؟ فقال: "يا أبا بَكر، ما رأيْتَ في الدنْيا ممَّا تكرَهُ فمثَاقيلُ ذَرِّ الشَّرِّ، وَيَدَّخِرُ لَكَ اللهُ مثَاقِيلَ الخيرِ حتى توَفَّاه يَوْمَ الْقِيامَةِ". (تفسير الطبري)

وليكن معلومًا أن هذا الأمر ليس للجميع بل هو خاص بأبي بكر وأمثاله، إذ كانت سيئاته ستنتهي في هذه الدنيا، ولذلك قال له النبي ﷺ: لا تحزن، إذ ليست سيئاتك إلا ما يُكفَّر بالحمّى وضياع مال أو أي أذًى آخر في الدنيا، ولن يكون من أعمالك يوم القيامة إلا خيرا.

وكذلك نقل ابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: أُنزلتْ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وأبو بكر الصدّيق قاعد، فبكى حين أُنزلتْ، فقال له رسول الله ﷺ: "ما يُبْكِيكَ يا أبا بَكْرٍ؟" قال: يُبكيني هذه السورة. فقال له رسول الله ﷺ: "لَوْلا أَنَّكُمْ تُخْطِئونَ وَتُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ، لَخَلَقَ اللهُ أُمَّةً يُخْطِئُونَ وَيُذْنِبُونَ فَيَغْفرُ لَهُمْ". (تفسير الطبري).. أي لا تحزن يا أبا بكر، لا شك أن المؤمن سيرى شرّه، ولكن ليس المراد من رؤيته شرّه سوى توبته عن سيئاته، لأن الإنسان إنما يتوب عندما يشعر بندامة شديدة في قلبه على ما سلف منه من ذنوب، فيشعر أنه قد ارتكب أخطاء كبيرة في حياته، فلا بد له من تلافيها. فلأن التوبة تجرح قلبه، وتولد فيه ندمًا شديدا على سيئاته، فتكون بمنـــزلة رؤيته لشرّه، فلو لم يرتكب شرًّا لم يتأذَّ قلبه على هذا النحو.

الواقع أن الله تعالى قد خلق الإنسان مزوَّدا بالقدرة على فعل الخير والشرّ، فلولا ذلك لما ظهرتْ بعض صفاته ﷻ في الدنيا. فلأن الناس مخيَّرون فتقع منهم السيئات والحسنات، وبالتالي تتجلى كثير من صفات الله التي تتعلق بالخلق الإنساني كالغفّار والستّار والرزّاق والمميت والمحيي، لذلك قال رسول الله ﷺ: إذا لم تُذنبوا وتتوبوا فيغفر الله لكم لخَلَقَ الله أُمّةً يخطئون ويذنبون فيغفر لهم". هذا لا يعني أن الله يحبّ السيئة، بل المراد ما قلته آنفًا بأن هذا المخلوق المزود بالقدرة على فعل الخير والشر يتسبب في تجلّي الكثير من صفات الله التي ما كانت لتتجلى لولا هذا المخلوق ذو القدرة.. الإنسان. كون الإنسان ذا قدرة يحتم أن يرتكب بعض السيئات، إذ كيف

يمكن أن يكون ذا قدرة وخيار ثم لا يعمل إلا الخير؟ إن كون الإنسان ذا قدرة نفسَه دليل على أنه ستصدر منه سيئات أيضا، وبالتالي فمن أراد التوبة وجد بابها مفتوحا، فإذا ندم قلبه احترق في نار الندامة وَصَفا، وهكذا تُغفر له خطاياه وتتجلى صفات الله أيضا.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال: "لما أُنزلتْ هذه الآية ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ قلت : يا رسول الله، إني لراءٍ عملي؟ قال: نعم. قلتُ: تلك الكبار الكبار؟ قال: نعم. قلت: الصغار الصغار. قال: نعم. قلت: واثكلَ أُمّي! قال: أَبْشِرْ يا أبا سعيد، فإن الحسنة بعشر أمثالها، يعني إلى سبعمائة ضعف، واللهُ يضاعف لمن يشاء، والسيئة بمثلها أو يعفو الله، ولن ينجو أحد منكم بعمله. قلت: ولا أنتَ يا نبي الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بالرحمة. (الدر المنثور)

والمراد من قوله ﷺ: "أبشِرْ يا أبا سعيد، فإن الحسنة بعشر أمثالها، يعني إلى سبعمائة ضعف" أنه لا داعي للقلق بسبب هذه الآية، لأنها تبين السنّةَ الإلهية فيما يتعلق بجزاء الحسنات والسيئات. على الكافر أن يصاب بالقلق، أما المؤمن فلا داعي لقلقه، لأن الله تعالى يعلن أنه سيجزيه بكل حسنة عشرةَ أمثالها حتى سبعمائة ضعف بل أكثر.

والحق أننا لو تدبرنا لوجدنا الأمر كما قال الشاعر "غالب":

جان دی، دی هوئی اُسی کی تهی

حق تو یه هے که حق ادا نه هوا

أي لقد ضحيتُ في سبيل الله بنفسي التي هي عطية منه ﷻ، فالحق أنني لم أؤدّ الحق.

الواقع أن النبي إذا كان يعمل الصالحات فإنما يعملها بما أعطاه الله من قوى وكفاءات. فلو نظرنا إلى الأمر من منظور منطقي مجرد لوجدنا أن النبي ليس في يده إلا فضل الله تعالى، لأنه إذا كان صلى أو صام أو حج أو تصدّق وغيرها من

الصالحات فإنما فعل ذلك بما آتاه الله من قوة وتوفيق، فثبت أنه لن ينجو النبي أيضا إلا بفضل الله تعالى. لا شك أن الإنسان يكون صالحا أو سيئا من حيث العمل، لكن من المنظور المنطقي لا يستحق أحد –مهما كان كبيرا– النجاةَ بناء على أعماله فقط، لأن ما فعله إنما فعله بما زوده الله من قدرة أو كفاءة. والواقع أن الرسول ﷺ قد تحدث في هذا الحديث من منظور منطقي خالص وليس من منظور عملي.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ.... شرا يره﴾، وذلك لما نزلتْ هذه الآية ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّه مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ كان المسلمون يرون أنهم لا يُؤجَرون على الشيء القليل الذي أَعطوه، فيجيء المسكينُ إلى أبوابهم فيستقِلُّون أن يعطوه التمرة والكسرة والجَوْزة ونحو ذلك، فيردّونه ويقولون: ما هذا بشيء، إنما نُؤجَر على ما نعطي ونحن نحبّه، وكان آخرون يَرَون أنهم لا يُلامون على الذنب اليسير: الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك، يقولون: إنما وعَد الله النارَ على الكبائر. فرَغَّبهم في القليل من الخير أن يعملوه، فإنه يوشك أن يكثُرَ، وحذَّرهم اليسيرَ من الشر، فإنه يوشك أن يكثُرَ، فنـــزلتْ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، يعني: وَزْنَ أصغرِ النمل، ﴿خَيْرًا يَرَهُ﴾ يعني: في كتابه، ويَسُرُّه ذلك. قال: يُكتَب لكلِّ برٍّ وفاجرٍ بكل سيئةٍ سيئةٌ واحدة وبكل حسنةٍ عشرُ حسناتٍ، فإذا كان يوم القيامة ضاعفَ الله حسناتِ المؤمنين أيضًا، بكل واحدة عشر، ويمحو عنه بكل حسنةٍ عشرَ سيئاتٍ، فمن زادت حسناته على سيئاته مثقالَ ذرة، دَخَلَ الجنة. (ابن كثير)

إن ما ورد هنا بأن هذه الآية نزلت بمناسبة كذا، فقد بيّنت مرارا أن ما تذكره الروايات بشأن نـــزول آية من الآيات فإنما يعني فقط أنها يمكن أن تنطبق على ذلك الحدث أيضًا، ولا يعني أنه لولا ذلك الحدث لما نزلت تلك الآية.

أما قوله: "وذلك لما نزلتْ هذه الآية ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾، كان المسلمون يرون أنهم لا يُؤجَرون على الشيء القليل الذي أعطوه".. فأودّ أن أبيّن بالمناسبة معاني قوله تعالى ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ

مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾. فقوله تعالى ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ يمكن أن يعني: على حب الطعام، أو على حب إطعام الطعام، أو على حب الله تعالى.

فالمعنى الأول: إن المؤمنين يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا عَلَى حُبِّ الطعام.. أي أنهم يطعمونهم رغم حبهم للمال أو الطعام. أي أنهم يكونون بحاجة إلى الطعام ومع ذلك يؤثرون على أنفسهم الفقراء وذوي الحاجة.

والمعنى الثاني: أنهم يطعمونهم على حب إطعام الطعام.. أي أنهم يحبون إخراج الصدقات حبًا شديدًا حتى إنهم لا يشعرون بالراحة ما لم يطعموا الآخرين من ذوي الحاجة.

والمعنى الثالث: أنهم يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّ الله تعالى.. أي أنهم يُطْعِمُونَهم الطَّعَامَ ابتغاءَ حُبّ الله ومرضاته فقط. لا يطعمونهم طمعًا في ثناء الناس أو جلبًا لمنفعة ممن أطعموهم، أو رجاء ثواب من الله تعالى، إنما يريدون به وجه الله فقط.

الحق أن هذه الآية تبين ثلاث درجات من الصدقة:

الأولى: أن يتصدق الإنسان وهو بحاجة إلى ما يتصدق به. والدرجة التي فوقها: أن يصبح مولعًا بالصدقات بحيث لا يجد راحة وسكينة ما لم يتصدق. والدرجة التي فوقها هي ألا يعمل ذلك رغبة في أي جزاء، بل يعمله شكرًا على منن الله وأفضاله.

والصحابة قد فسروا قوله تعالى ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ أي: على حب الطعام.. بمعنى أن يتصدق المرء بما يحبه ويحتاج إليه أيضا.

أما ما ورد في الرواية: "فيجيء المسكين إلى أبوابهم فيستقلّون أن يعطوه التمرة والكسرة والجَوْزة ونحو ذلك، فيردونه" فمعنى ذلك أنهم لم يكن عندهم مال كثير حتى يتصدقوا به، كما أنهم كانوا يرون أنهم إذا أعطوا شيئا قليلا فلن يُجزَوا عليه مثل تمرة وكسرة خبز وحبة جَوْز، لذا فكانوا يردون السائل من دون أن يعطوه شيئا.

والمراد من قوله "والنظرة".. أي كانوا لا يرون بأسًا إذا نظروا إلى امرأة لا يجوز لهم النظر إليها.

وأما عبارة "فرغَّبَهم في القليل من الخير أن يعملوه، فإنه يوشك أن يكثر"، فمعناه أن النبي ﷺ قال لهم عليكم أن تفعلوا الخير مهما صغُر، لأن من سنة الله

تعالى أن الخير يزداد، فإذا بذرتم بذرة الخير -مهما كان حقيرا وضئيلا- فإن الله سينمّيه ويجزيكم عليه يوم القيامة جزاءً يذهلكم، فلا تفوّتوا عليكم فرصة فعل الخير مهما صغُر.

وفيما يتعلق بمفهوم الآية المذكورة في هذه الرواية فأنا أتفق معه، ولكن فيما قيل عن الصحابة فلا أتفق معه، بل أرى فيه إساءة كبيرة للصحابة، لأن ذلك يعني أنهم كانوا يطعمون الفقير إذا قيل لهم إن لهم الجنة على إنفاقهم، أما إذا قيل لهم أن لا جنة لهم فكانوا لا يطعمون الفقير. فهذه الفكرة لا يمكن قبولها بحق الصحابة لحظة واحدة نظرًا إلى سيرتهم وأحوالهم. لقد آمنوا بالرسول ﷺ، فتغيّرت حالتهم رأسًا على عقب، فالقول أنهم كانوا لا يعطون الكسرة للمسكين إذا جاء بابهم، وكانوا يردّونه ظنًا منهم أن هذا العمل ليس فيه ثواب، قولٌ لا أساس له البتة. يبدو أن الراوي ظن أن الصحابة كانوا يفكرون هكذا، مع أنهم بريئون من هذه التهمة. لا شك أنهم أرفع من هذا. فإننا نرى أن كثيرا من الدهريين- المنكرين لوجود الباري تعالى، والكافرين بجزاء الحسنات، والغارقين في مشاغل الدنيا ليل نهار، والضاحكين على ذكر الآخرة- إذا جاءهم فقير أنفقوا عليه آلافًا من دون أي تفكير في أي جزاء لعملهم هذا. فما دام هؤلاء المحرومون من الإيمان كلية لا يفكرون في جزاء عند إطعام مسكين، فكيف يتصور أن الصحابة كانوا يقبضون أيديهم عن الصدقات، ظانين أن الخير القليل لا أجر عليه، فلماذا يقومون به؟

فالحق أن هذا الرأي عن الصحابة باطل حتمًا. بيد أن مفهوم الآية المذكور هنا صحيح، حيث قيل: إن مَن يعمل مثقال ذرة.. أيْ وزنَ أصغرِ النمل خيرًا يَرَه في كتابه ويسُرّه ذلك، لأن الله تعالى يجزيه بحسب حسناته ويورثه أفضاله.

أما ما قيل بعد ذلك: "يُكتب لكل برٍّ وفاجر بكل سيئة سيئةٌ واحدة، وبكل حسنة عشرُ حسنات، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسناتِ المؤمنين أيضًا، بكل واحدة عشر" فيماثله المثل الفارسي:

دَهْ در دنيا ستر در آخرت

أي عشرة في الدنيا وسبعون في الآخرة.

ولكن نظرًا إلى مفهوم هذا الحديث يجب أن نعدّل هذا المثل قليلاً كالآتي:

دَهْ در دنيا سو در آخرت

أي عشرة في الدنيا ومائة في الآخرة.

ثم ورد في الرواية: "ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات". وهذا يعني أنه يُعطى الجزاء بطريقين: فمِن ناحية تضاعف حسنة له إلى عشر ثم إلى مائة حسنة، ومن ناحية أخرى تمحى عشر من سيئاته مقابل حسنة واحدة له.

الواقع أن حب الله هو الأصل، وهذا الجزاء الذي تذكره الشريعة هنا إنما هو للذي يكون قلبه عامرا بحب الله وعشقه، وليس للذي قسا قلبه وليس فيه ذرة من حب الله، والذي إذا عمل خيرا أو تجنب شرا فإنما فعل ذلك صدفةً، وليس حبًا لله أو تجنبًا لسخطه، فمثل هذا الإنسان لا يستحق أي إنعام من الله تعالى، إنما هذا الإنعام لمن يفيض قلبه حبًّا لله تعالى، والذي يجد في قلبه لوعة حب الله رغم كل ما فيه من تقصيرات. ولا جرم أن القلب العامر بحب الله تعالى لن يُلقى في الجحيم أبدا، بل سوف يدبر الله له النجاة بشتى الوسائل والطرق والحسابات، ولذلك ورد في آخر هذه الرواية: "فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة". وليس مفهوم ذلك إلا أن الله تعالى يعلم حالة المؤمن الصادق فيتخذ كل تدبير لإنقاذه من النار، شأن الأم التي تستنفد كل وسيلة لإنقاذ ابنها من الأذى. نجد في الحب الذي كان يكنّه الرسول ﷺ لصحابته، والعشق الذي كان في قلوب صحابته له ﷺ، أمثلةً تؤكد كيف أن المحب الصادق يحاول إنقاذ حبيبه بأي طريق ممكن. ورد في الحديث أن شخصًا جاء النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، قد اقترفتُ ذنبًا كذا، فماذا أفعل الآن؟ فقال ﷺ: أَعْتِقْ رقبةً. قال: لا أقدر على ذلك. قال ﷺ: فصُمْ شهرين متتاليين. قال: لا أقدر. قال: أَطْعِمْ ستين مسكينا؟ قال: مِن أين أطعمهم وليس عندي ما آكله أنا. فجاء شخص بسلة تمر، فقدّمه للنبي ﷺ، فقال ﷺ لهذا السائل: خُذْ هذا التمر وأَطْعِمْه المساكين يكُنْ كفّارةً عن ذنبك. فحمَل سلّة التمر

وقال يا رسول الله، هناك أمر آخر. فقال: ماذا؟ ليس في المدينة مَن هو أشدُّ فقرًا مني، فمِن أين أجد فقيرا مسكينا. فضحك النبي ﷺ وقال: حسنًا، خُذْها وكُلْها يكنْ كفارةً عن ذنبك. (البخاري: كتاب الصوم)

فمَن كان يحب الله تعالى حبًا صادقا وسعى حق السعي لتكون عاقبته الحسنى وليدخل في زمرة عباد الله المنعم عليهم، فإنه إذا لم ينجح في سعيه ١٠٠%، فإن الله تعالى لن يضيع ما في قلبه من لوعة حبّه، بل سيعامله بما في قلبه من إيمان وإخلاص.. وينجيه بطريق ما ويقول لملائكته: خُذوا عبدي وأدخلوه جنّتي.